



التاريخ التونسي المعاصر والذاكرة الشعبية مدخل منهجي وآفاق بحث

بقلم أحمد جدي
دكتور دولة في التاريخ

يُعتبر التاريخ التونسي المعاصر من أثرى وأدق وأصعب مجالات البحث العلمي والتاريخي. ذلك أن كثيرا من التساؤلات والخفايا، والاشكاليات لا تزال مجهولة أو مشوّهة وموجهة، طبقا لعدد الاعتبارات والمواقف والرؤى. ومن هذه المسائل مكانة التاريخ التونسي المعاصر في الذاكرة الشعبية والخيال الجماعي.

أسس المسألة :

مبدئيا، ليست لنا فكرة إحصاء ودراسة ونقل كل ما كُتِبَ عن تاريخ تونس في القرن 20 ويقتضي هذا المشروع ضروريا وبثأما وفيه أكثر من فائدة وأهمية⁽¹⁾. كذلك، من الواجب التأكيد على غياب أو قلة الدراسات العامة والشاملة والمحورية للمجتمع التونسي المعاصر في مختلف مستوياته وأبعاده⁽²⁾. وخاصة إنتاج الباحثين والمؤرخين التونسيين. وفي نفس الاتجاه، نلاحظ عدم توازن ومحدودية في الدراسات الموجودة، سواء في الأطروحات الجامعية أو المقالات والملاحظات والمداخلات. ومرّد هذه المحدودية وهذا التفاوت جملة من المعطيات مرتبطة في نظرنا بمصادر الأبحاث وطرق البحث والاشكاليات المطروحة. ذلك أنها تتمحور عموما حول الاستعمار الفرنسي والرأسمالية الغربية والتحوّلات الاجتماعية

(1) انظر : Mohamed Hédi Chérif : L'histoire du XX s. tunisien, I.B.L.A. n° 159 – 1987, pp.91-114.

(2) هناك محاولة واحدة، حسب علمنا : Ahmed Kassab : Histoire de la Tunisie L'époque contemporaine. Tunis. S.T.D. 1976.

والاقتصادية والسياسية، في مظاهرها المختلفة. كما وقّع التعمق فيها أو مقاربتها انطلاقاً من مصادر ووثائق مكتوبة ومحفوظة في أوساط عديدة ومتباينة : تونسية، فرنسية، إيطالية، الخ... كما ساعدت هذه الوثائق على كتابة ومقاربة جملة من القضايا المعقدة والشمولية لها أكثر من علاقة بمجال تاريخ تونس المعاصر صادرة عن أوساط مختلفة، رسمية وغير رسمية، تونسية وأجنبية، ميسّسة وغير ميسّسة : رجال سياسة، إداريين، عسكريين، علماء وأدباء وباحثين، رحالة وملاحظين، اقتصاديين، صحفيين، الخ... من هنا، تأخذ هذه الوثائق بُعداً نخبوياً يؤثر على مصداقيتها وموضوعيتها ومدى ارتباطها بالظاهرة التاريخية ككل، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بدراسة تاريخ تونس المعاصر في جميع مستوياته. ولعلّ بعض الكتابات المنشورة في هذا الشأن، تساعدنا كثيراً على مواصلة البحث والتساؤل والتعمّق والتعامل مع الواقع التاريخي. فتاريخ الرأسمالية والاستعمار الفرنسيين والحركة الوطنية التونسية استأثرا اهتمام وجهود باحثين أجانب وتونسيين⁽¹⁾. وانطلاقاً من هذه الدراسات. يمكن التأكيد على تنوّع مصادرها ومراجعتها من ناحية، وتعدّد مناهجها وأطروحاتها واستنتاجاتها من ناحية ثانية، واختلاف تعامل أصحابها، طبقياً ومعرفياً، مع مجالات الحركة الاجتماعية التونسية المعاصرة، من ناحية ثالثة. ذلك أن مسألة الاستعمار الفرنسي والمجتمع التونسي المعاصر يطرحان أكثر من إشكالية ويستوجبان أكثر من مستوى بحث ودراسة.

فإشكالية التاريخ التونسي المعاصر تُعرّف أساساً على أنها مشروع معرفي وعلمي وتحليلي لكل أبعاد ومستويات ومضاعفات الحركة الاجتماعية في علاقاتها مع الأوضاع الاقتصادية والديموغرافية وأنماط التفكير السياسي والثقافي والمواقف من تلك الحركة.

-
- (1) انظر مثلاً : Mahjoubi Ali : L'établissement du protectorat français en Tunisie
Tunis — P.V.T. 1977.
— Les origines du mouvement national tunisien 1904-1934, Tunis, P.V.T. 1982.
— Sammut Camel : L'impérialisme capitaliste français et le nationalisme tunisien
1881-1914, Paris, Ed. Publisud, 1983.
— Ziada Nicola : Origine of nationalism in Tunisia, Beyrouth, 1962.

ومن هذا المنطلق، أمكن لنا القول والتأكيد بعدم وصولنا بعدُ إلى إنجاز هذا المشروع العلمي الضخم : كتابة ومعرفة وتحليل التاريخ التونسي المعاصر. فالحصيلة العلمية في هذا المجال ضعيفة ولم تتجاوز بعد المرحلة الجنينية. إذن لا نعرف الكثير وبعمق عن مسائل الفكر السياسي في تونس المعاصرة، كما لم تتراكم لدينا المعارف العلمية الرصينة والمرتبطة بالتحوّلات الاجتماعية الاقتصادية الفكرية. ذلك أنه تنقّصنا إلى اليوم الدراسات التاريخية المعمّقة لطبقات اجتماعية ومناطق جغرافية عديدة في البلاد التونسية. فالوثائق المكتوبة، على تنوّعها وكميّتها وأهميتها، سواء تلك التي استغلها الباحثون والدارسون أو تلك التي تترقّب التحليل، لا تشفي غليل المؤرّخ الذي يبحث عن معرفة هادفة للواقع والحركة الاجتماعيين في المجال التونسي المعاصر. فالوثيقة المكتوبة، باعتبار أهميتها المعرفية والعلمية والوثائقية والتاريخية، تبقى بالضرورة محدودة العمق ومنقوصة المعارف، إذا ما ربطناها بأعماق وأبعاد المجتمع المدروس، خصوصا إذا كان مجتمعا مستعمرا وتابعا ومتحوّلا.

ففي كتابة التاريخ المعاصر، استوجب الأمر تجاوز الوثيقة المكتوبة وعدم تأليهها وإعطائها المكانة المركزية في البحث التاريخي. ذلك أنها تعفي أو تتناسى كثيرا «صنّاع» التاريخ ويجوز لنا اعتبارهم بمنطق المكتوب «مرفوضو التاريخ Les exclus de l'histoire». من هنا تأتي أهمية اللامكتوب Le non écrit في معرفة وفهم وتحليل تاريخ مجتمع معيّن. ونعرّف اللامكتوب بالذاكرة الشعبية والخيال الجماعي والمعاينة اليومية وخاصة في كتابة التاريخ المعاصر، تلك اللحظات التي يصنّعها أشخاص/فئات/طبقات من أعماق المجتمع.

فالتاريخ المكتوب اعتمادا على وثائق مكتوبة هو بالضرورة وبطبيعته تاريخ رسمي ونخبوي ومحدود الحصيلة المعرفية. ويمكن التأكيد على أن كل مكتوب يحمل بطبيعة نشأته ومحتواه مكبوتات في الحركية والجدلية الاجتماعيتين. وهذا المكبوت أي اللامكتوب في المكتوب كامن أساسا في الذاكرة الشعبية بطرق متنوّعة وفي مستويات مختلفة ولأسباب وظروف

متعدّدة. فإذا كانت العلاقة بين كتابة التاريخ والوثيقة المكتوبة علاقة نخبوية محدودة فإن العلاقة بين التاريخ والذاكرة الجماعية علاقة ثراء وجدلية وعمق «ولا محدود». من هذا المنطلق، نرى في كل تاريخ مكتوب ومدوّن تاريخاً منقوصاً. والخطر كامن في كتابة التاريخ من وثائق مكتوبة فتكون النتيجة إعادة تاريخ مكتوب. فالتاريخ الحقيقي ذلك المخزون في الذاكرة الشعبية، ذاكرة الأفراد والمجموعات والفئات والطبقات والأجيال.

الذاكرة الجماعية وكتابة التاريخ :

إن المقاربة العلمية للظاهرة التاريخية المعاصرة تستوجب استعمال واستغلال كل مصادر وأنواع المعارف : الآثار، النقود، الفنون بأنواعها، الوثائق المكتوبة، وكذلك المصادر الشفوية. ويمكن اعتبار المصادر الشفوية عنصراً ثابتاً وهاماً وجديداً في كتابة التاريخ المعاصر لمجتمع معين، اعتباراً للقوى الاجتماعية الفاعلة في المجال التاريخي والواعية بإشكاليات ومهام عديدة. ويجب التأكيد في هذا المجال على تنوع طرق ومستويات الكتابة التاريخية والبحث التاريخي من مجتمع إلى آخر. ففي المجتمعات الغربية، تشهد حركة البحث التاريخي ثورة في المناهج والمفاهيم والنتائج وأطر المعرفة عموماً. ومن بين مظاهر هذه الثورة المعرفية. تركّز على ظهور مراكز التاريخ الشفاهي والذاكرة الشعبية والمذكرات ودور الخيال الجماعي في تصوّر وفعل وخرن التاريخ إلى جانب التاريخ المقارن وعلاقة التاريخ بالعلوم الأخرى⁽¹⁾.

أما في تونس، فلا تزال الكتابة التاريخية متعثّرة وبطيئة وغير تراكمية لأسباب هامة ومتنوعة. والوضعية أكثر حساسية بالنسبة لعلاقة الذاكرة الجماعية والمصادر الشفوية بالتاريخ التونسي المعاصر. وفي هذا الإطار، من اللازم علينا التنبيه إلى غياب مؤسسات بحث علمي متطورة مثل مركز

(1) مثلاً : معهد تاريخ الزمن الحاضر بفرنسا - باريس L'Istitut d'Histoire du Temps Présent

— Vilanova (M.) et Borderias (C.) : L'histoire orale et ses enseignements

Bulletin d'I.H.T.P. n° 11, 1983, pp. 22-31.

— Vilar (P.) : Une histoire en construction — Paris, 1974.

دراسات وبحث في التاريخ التونسي المعاصر، من ناحية، وغياب مركز دراسات وبحث في التاريخ الحديث والمعاصر، من ناحية أخرى. فلا يزال البحث التاريخي مركّزا على المصادر والوثائق المكتوبة. ومن المعلوم، أن الواقع التاريخي والحقيقة التاريخية والاشكاليات التاريخية تتجاوز أحيانا المصدر المكتوب وتوجد في الذاكرة الجماعية. ومن هنا، وجب التفتح على المصادر الشفوية للتاريخ التونسي المعاصر، وهي، كثيرة وهامة ومختلفة الأبعاد والمستويات.

فلا تزال، إذن، هذه المسألة في بدايتها وينتج عن ذلك محدودية أو هامشية ثقافتنا التاريخية عن تونس المعاصرة. ومن الهام التذكير بمحاولة أولى قام بها مختصون في علم الاجتماع وعلم النفس وهي الاستماع إلى عدد هام من التونسيين المناضلين وتسجيل ذلك وتحليله⁽¹⁾. ويمكن التأكيد في هذا الإطار، على أن التاريخ الشفوي مهمّش في دراساتنا التونسية المعاصرة بالرغم من توفر شروطه الموضوعية عموما.

فالمسألة، في كل أبعادها ومظاهرها، ثابتة في الطرح التالي :

- كيف عايش التونسيون تاريخهم المعاصر وما هي مختلف تصوّراتهم له؟

وليس غايتنا في هذا المجال الاجابة عن جملة من الأسئلة، بل محاولة تحديد أطر العمل والبحث في انتظار تأسيس «أنثروبولوجيا تاريخية» لتونس المعاصرة. وبذلك، تصبح العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع والأدب والثقافة والاقتصاد والسياسة والديموغرافيا علاقة أساسية، متنوّعة الأبعاد والمستويات، تكوّن في نهاية التحليل وحدة معرفية ونسق تفكيري شاملين. إذ لا تاريخ في المطلق وكل تاريخ هو بالضرورة حركة اجتماعية ونظام سياسي ونسق معرفي ثقافي. وقبل وضع الأطر المنهجية للبحث في تاريخ

— Lilia Labidi-Chabbi et Abdelkader Zghal

(1) محاولة :

Histoire orale : la génération des années 30.

Sources et méthodes de l'histoire du mouvement national tunisien (1920-1954) Tunis,

C.N.U.D.S.T. 1985, pp. 91-108.

تونس المعاصر اعتمادا على الذاكرة الشعبية أو الخيال الجماعي التونسي،
نودّ توضيح مفهومنا للخيال أو المخيال والمخيّل الجماعي⁽¹⁾.

يحدّد العلماء الخيال الجماعي أو الذاكرة الشعبية كما يلي :

- أ - ملكة استحضار صور شيء ما كُنّا قد رأيناه سابقا.
- ب - ملكة خلق صور لأشياء غير واقعية أو لم تُرَ في السابق.
- ج - ملكة بلّورة مفاهيم وتصورات ونظريات جديدة وإيجاد تجارب عملية في كل المناسبات⁽²⁾.

إنّ، في كل الحالات، لا يمكن الفصل بين الواقع التاريخي المادّي من ناحية، و«الواقع» الخيالي أو الأسطوري والفكري من ناحية أخرى.

ونركّز فيما يلي على المجالات التي يمكن البحث فيها إثراء للتاريخ التونسي المعاصر واعتمادا على المصادر الشفوية والذاكرة الجماعية.

1 - التاريخ السياسي في تونس المعاصرة من خلال الذاكرة الشعبية :
مفاهيم الحكم والسلطة والسياسة في الأوساط التونسية المختلفة (سياسيين، مثقّقين، رجال دين، عمّال، طلبة، فئات اجتماعية أخرى)،
مساهمة التونسيين في النضال السياسي (البرامج السياسية، الرّوى السياسية، ومائل العمل السياسية، العلاقات السياسية)، ونمكّننا هذه الحفريات من ربط التاريخ السياسي في تونس المعاصرة بالانترولوجيا السياسية وعلم الاجتماع السياسي والثقافة السياسية.

2 - التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي في تونس المعاصرة من خلال الذاكرة الشعبية : دراسة الحركات الاجتماعية، التركيبية الاجتماعية، العلاقات الاجتماعية، الظواهر الاقتصادية المختلة : علاقة المدن بالأرياف، علاقة المدن ببعضها، علاقة الأرياف ببعضها، الخ...

(1) ترجمة هذه المفاهيم بالفرنسية : L'imaginaire social, sociétal ou collectif

(2) انظر : محمد أركون : الاسلام : عالم وسياسية، ترجمة د. هاشم صالح، الفكر العربي المعاصر، عدد 47 - 1987، ص 16-19.

3 - التاريخ الثقافي والفكري من خلال الذاكرة الشعبية : الاغاني الشعبية، الفلكلور الشعبي، القصص الشعبية، مكانة الدين والأساطير في الثقافة والتفكير في الأوساط الشعبية، تصوّر المجتمع للثقافة والتربية والتعليم والشغل والمرأة والغرب، ردود فعل ومواقف الفئات الاجتماعية التونسية من بعض الظواهر الاقتصادية (أزمة 1929، الأزمات الاقتصادية).

4 - التاريخ العربي الاسلامي المعاصر من خلال الذاكرة الشعبية التونسية : القضية الفلسطينية، الثورة الجزائرية، انهيار الخلافة العثمانية، حركات التحرر والاستقلال في المغرب وليبيا ومصر وسوريا ولبنان، الخ...

5 - التاريخ الأوروبي والعالمي المعاصر من خلال الذاكرة الشعبية التونسية : الحرب العالمية الأولى، الحرب العالمية الثانية، حرب الفيتنام، تكوين اليابان وألمانيا الغربية والاتحاد السوفيتي، الخ...

تلك هي، في تصوّرنا، بعض المسائل والمشاكل والأفق والأطر المتعلقة بمكانة وأهمية التاريخ التونسي المعاصر من خلال الذاكرة الشعبية التونسية : ذاكرة الأرياف، ذاكرة المدن، ذاكرة العمال والفلاحين، ذاكرة المناضلين والنقابيين والسياسيين، ذاكرة المرأة والأدباء والمفكرين. تكون هذه المعطيات مجتمعة برنامجا أساسيا وطموحا في موضع التاريخ التونسي المعاصر، ذلك أن البناء الحضاري يستوجب معرفة تاريخية واضحة ومعقّدة وغير مقطوعة عن التراث والتاريخ.

دعوة للعشق

شعر : الاستاذ نور الدين بن بلقاسم

أَحْبُكَ وَالْحُبُّ رُوحَ الْحَيَاةِ
أَحْبُكَ حُبًّا غَمِيقَ الْجُدُورِ
فَحَبِّكَ قَبْلَ ابْتِذَاءِ الْوُجُودِ
وَقَبْلَ السَّمَاءِ وَقَبْلَ النُّجُومِ
فَكُنَّا مِنَ الْحُبِّ لَحْنًا قَدِيمًا
إِذَا مَا صَنَعْتَ تَلَأْنَتْ هُمُومِي
وَضَجَّ بِقَلْبِي نِذَاءُ الْحَيَاةِ
وَهَيْثُ إِلَيَّ مَوَاقِبُ حُلُمِي
فَأَنْتَ لِنَفْسِي الرَّبِيعُ الْجَمِيلُ
وَأَنْتَ لِقَلْبِي نَبِيذُ الْخُلُودِ
فَهَبَا نَسِيرُ إِلَى الْحُبِّ هَبَا
فَمَا الْعُمُرُ إِلَّا غَوَانُ جِصَانِ
فَتَسْكُبُ فِيهَا جَمَالًا وَعِطْرًا
غَدَا يَفْتُلُ الدَّهْرُ أَحْلَامَنَا
وَهَذَا الْوُجُودُ غَدَا يَمْجِي
فَلَنْ تَلْتَقِيَ بِالْوُعودِ السَّمَاجِ
فَهَبَا إِلَى الْعَشْقِ وَالْإِنْطِلَاقِ
فَهَذَا الصَّبَاحُ يَطْلُ عَلَيْنَا
وَهَذَا النَّسِيمُ يَهْبُ رُخَاءَ
وَهَذَا الْجَمَالُ يَسِيرُ وَنِيدَا
فَلِلْعَشْقِ فِي مُهْجَتِي مَهْرَجَانِ

وَحُمْرَةُ أَحْلَامُنَا الْبَاقِيَّةُ
تَأَصَّلَ فِي نَفْسِي الدَّامِيَّةُ
وَقَبْلَ انْتِصَابِهِ فِي النَّاوِيَّةِ
وَقَبْلَ وُجُودِ الذَّرَى الْعَالِيَّةِ
وَكُنَّا صَدَى قُبْلَةٍ زَاهِيَّةِ
وَذَارَتْ بِرَأْسِي الرُّوَى الْعَالِيَّةِ
وَعَانَقَنِي الشُّوقُ وَالْقَافِيَّةُ
لَتَمُخَّجَنِي الشَّعْرُ وَالْقَافِيَّةُ
إِذَا مَا تَبَدَّى عَلَى الرَّابِيَةِ
يَهْزُهُ أَحْلَامُهُ الْغَافِيَّةُ
فَلِلْعُمُرِ أَسْطُورَةٌ ثَانِيَّةُ
تَمُرُّ بِأَيَّامِنَا الْخَاوِيَّةِ
وَتَرْفَعُهَا لِلسَّمَاءِ عَالِيَّةِ
وَتَنْذِرُنَا يَدُهُ الْغَاوِيَّةِ
وَتَبْلَعُنَا فَوْهَةُ الْهََاوِيَّةِ
وَفِي الْقَبْرِ لَوْعَتُنَا الْكََاوِيَّةِ
وَهَبَا إِلَى الرَّقْصِ يَا غَالِيَّةِ
وَهَذَا الرَّبِيعُ عَلَى الرَّابِيَةِ
تَبَارِكُهُ الْغَنِمَةُ السَّارِيَّةِ
تَغَارِلُهُ هُمْسَةُ السَّاقِيَّةِ
أَلَا فَادْخُلِي مُهْجَتِي ثَانِيَّةِ

تاريخ القصيد : تونس في مار 1970

من هو ابن أبي الضياف

بقلم : الاستاذ محسن ابن أبي الضياف

عرف الوزير الكاتب المؤرخ أبو العباسي أحمد ابن أبي الضياف النور في أوائل القرن الثالث عشر هجري سنة 1219 الموافق لسنة 1804 وهذا التاريخ هو الوارد في أغلب الكتب التي تعرّضت للحديث عن حياة هذا المؤرخ سواء منها عنوان الاريب لمحمد النيفر أو مجمع الدواوين لمحمد السنوسي، أو الاعلام لخير الدين الزركلي أو في ترجمة له وهي المتصدرة لتاريخه المطبوع وهي للشيخ العلامة محمد البشير بن الخوجة.

الا أن هناك رواية أخرى اعتمد عليها صاحب كتاب «المؤرخون التونسيون» في القرون 17 - 18 - 19 ترى أن المؤرخ ولد سنة 1217 هـ وذلك استنادا على ما جاء من تصويب للأسرة في الرائد الرسمي بتاريخ ميلاد المؤرخ بعد المقال الذي نشره محمد السنوسي مدير الجريدة عن المؤرخ بعد بضعة أيام من وفاته.

ولا شك أن التاريخ الثاني أي سنة 1217 هو الأدق وأحمد بن أبي الضياف هو من أسرة تنتمي بالنسب إلى قبيلة أولاد عون بجهة سليانة.

وهي قبيلة كبيرة عرفت بتلاحم اعضائها واتحاد كلمتهم يملكون أرضا واسعة خصبة، جعلتهم يعيشون في مأمن من الحاجة والخصاصة كما أن اتحادهم جعلهم في مأمن من اعتداء المعتدين وغارات القبائل الأخرى، وقد كانت بلادنا اذاك قبائل وعروشا بعضها مستقر وبعضها رحل، ويقال انها من انصار الأسرة الحسينية، كما أن المؤرخ من احفاد الولي الصالح أحمد الباهي المعروف بسليانة وقد أوقف على زاويته ملوك تونس أراضي شاسعة وبنى حمودة باشا المرادي على قبره قبة.

وقد وفد والد المؤرخ وهو الحاج بالضياف إلى تونس وهو صغير السن لطلب العلم تحت رعاية وإشراف جده، وبترخيص منه، وقد كفله بعد أن مات أبوه في الطاعون الجارف فحفظ القرآن بزاوية سيدي أحمد الباهي المعروفة اليوم بناحية باب (الاقواس) ثم انتقل إلى طلب العلم بمدرسة حوانيت عاشور، وتحصل على نصيب من العلم، ولكن الموت اختطفته منه جده الذي كان ينفق عليه وهو مازال لم يملأ وطابه من العلم فلم ير بدا من الالتحاق بوظيفة يكتسب منها فأصبح كاتباً عند القائد عثمان المملوك عامل قفصة.

وكانت للحاج ابن أبي الضياف خصال اتصف بها إلى آخر حياته، وهي الاخلاص والتعلق لمن يعمل معهم من رجال الحكم، وأدرك ذلك الباى عنه فبعد وفاة عثمان المملوك ألحقه بخدمة وزيره ابن المحاسن يوسف صاحب الطابع الذي صار معه على نفس التنسيق من الاخلاص والوفاء حتى كان مطلعاً على أدق حساباته وهو المعروف بثروته الهائلة وتجارته الرابحة حتى يقال أحياناً إن ثروته لا تقل عن ثروة الدولة أي خزانة الدولة - ولما حاك الإعداء والحساد لصاحب الطابع المكائد - وكان ما كان من قتله وعبث السفهاء بجسده المكرم وجزه مثل جيف البهائم وبقاء هذا الشين من جمال هذه الحاضرة عمرها الله.

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

بعد القضاء على صاحب الطابع ألقى القبض على أتباعه وأعوانه وألقي بهم في السجن ومن ضمنهم الحاج بالضياف الذي جرد من كل ممتلكاته، وكان آخر من أدخل سبيلهم من أصحاب الوزير ظناً أنه يعرف كل خبايا ثروة صاحب الطابع وقال عن المؤرخ متأثراً، وخرج من ماله الذي أثره على طلب العلم، كيوم ولدته أمه ويوم تسريحه بعث له أبو عبد الله حسين باي بمائة محبوب ليُرَقَّ بها أفرأخه، المتقولون من عيشهم إلى بيت جدهم للام، واعانة الوزير أبو عبد الله محمد العربي زروق بما سَدَ رمقه من دارهم وقمع وكسوة، ثم بقي يلاقي البؤس والظنك.

وكان اذاك مؤرخنا صبياً وليس ارسخ في نفوس النّاس مما يعيشه الانسان في صباه، فان آثارها تظل عالقة بالنفس، وربما تطرق الكثير منها لتكوين عناصر شخصيته، ولا تبرحه حتى ولو غير الله الكثير من حياته

ويقول المؤرخ عن أبيه : ولا أذكىه وأنا ابنه، ولأهل الحضارة عمرها الله تعالى محبة فيه، رأيت أثرها بعد محنته وأنا صبي.

إلا أنه بعد مدة رد له اعتباره واجتباؤه أبو عبد الله حسين باشا والحقه بكتابة وزيره أبي عبد الله حسين خوجة ثم التحق بخدمة الوزير ابن محمد شاكر صاحب الطابع لما تقممت به السن.

وقد تعمدت الاطالة في الحديث عن حياة الحاج بالضياف لاعتقادي جازما ان لحياة هذا الاب وما تردى فيه من محن كادت تؤدي به إلى الهلاك أقوى تأثير على نفسية وتكوين شخصية ابنه أحمد الذي لاحظ كيف قلبت الدنيا ظهر المجن للأسرة وحتى بيتهم افتك منهم فالتجؤوا إلى بيت جدهم للألم وما يصاحب ذلك من مثلة تغير الاحوال وشماتة الشامتين والحاقدين.

ولولا تلك المحن التي عرفها الأب لما كان لابن أبي الضياف تلك النفس الطموحة الى الحرية والعدالة الاجتماعية في عصر كان فيه الحكم فرديا ولا كلمة الا لرجل واحد هو الباي وأن الحرية والعدالة ابعد ما تكون عن عقول القوم وأفكارهم وأسس حكمهم، فالتناس كلهم رعايا، والرعايا ليسوا الا وسيلة لامتلاء خزائن الباي عن طريق المكوس والضرائب التي تتصاعد أو تنخفض حسبما يراه الباي أو وزيره وهي إن انخفضت فموقنا الرعية واجتلاب قلوبهم، فاذا أمن الباي ورست قواعد عرشه بالانتصار على عدوه وخصمه عادت الامور الى ما كانت عليه بل وأسوأ كما في ولاية ابراهيم الشريف باي.

وكانت أحوال العالم العربي لا تختلف من شيء عن تونس التي كانت تعتبر اذاك احدى ولايات النولة العثمانية، بل ان حكام تونس ومصر والجزائر وغيرها ليسوا الا ممالিকা ومواليا أترাকা أو جراكسة نُصّبوا على حكم البلاد بأمر الباي العالي، ثم أصبح الطريق الى الحكم هو تطاحن من هؤلاء المماليك فيما بينهم، وما يجزه ذلك الصراع من ويلات على أهالي البلاد، فإذا استتب الأمر لاحدهم راسل الباي العالي فيوصله الفرمان بترسيمه وتوطيد حكمه في تلك العمالة، وهو يتولى ارسال الخراج سنويا إلى الخليفة

العثماني، وقد يطول الحكم بأسرة أحدهم كأسرة حسين بن علي بتونس وأسرة محمد علي بمصر وقد يقصر ..

وفي كل الحالات المواطن لا يأمن على ماله ونفسه من جور الحاكم وبطشه.

وعندما كان العالم العربي على ما ذكرت خلال هذا القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر ميلادي كانت أوروبا أو دول الاقترنج تقف على أبواب عصر الازدهار والتكنولوجية حتى أطلق على هذا القرن عصر النور، وظهرت أخبار جديدة ونظريات في الرياضيات والكيمياء والطبيعة غيرت الكثير من المفاهيم والعلوم والنظريات الموروثة.

كما ظهرت الآلة البخارية وتغيرت وسائل النقل والمواصلات فيها فظهر القطار كما ظهر التلغراف الكهربائي سنة 1844 وظهر الهاتف في أواخر هذا القرن بأمريكا 1878.

ووقفت أوروبا كالعراق منذ أوائل هذا القرن ترسخ دعائم حقوق الانسان والمساواة بعد الثورة الفرنسية الدائمة، ورغم النكسة التي عرفتها بعودة الامبراطورية على يد أحد قوادها نابليون بونابارت ثم عودة الملكية بعد هزيمة 1814 الا أن الانسان الاوروبي عرف رجة كبيرة وخرج رغم كل التضحيات والعوائق من عصر الظلم والحكم الفردي وتواطىء الكنيسة مع الملوك لاختاد طموحات الشعوب الأوروبية.

وبذلك ظهرت الملكية الدستورية المشفوعة بمجالس نيابية ودماسير لا يستطيع حتى الملك خرق بنودها، وظهرت طبقة جديدة هي البرجوازية التي تحولت الى رأس مالية.

وكان عصر الصناعة، وكان لا بد لهذه الرأس مالية الجديدة من أن تضمن المواد الأولية والاسواق لترويج الانتاج، ونتيجة لذلك لا بد من استعمار مزيد من البلاد حتى تضمن النجاح لمشاريعها.

وقد كانت الدولة العثمانية قوة عسكرية لذلك كانت ترهبها الدول الأوروبية، ولم تجرؤ على الاقتطاع من مملكتها الا لما آنتست ضعفا منها، واخذت تتفق وتتخاصم لاقتسام اجزاء من ميراث امبراطورية الرجل المريض بوسائل مختلفة بالحرب مثلا كغزو الجزائر أو بالديبلوماسية كتحرير عرب الجزيرة العربية والشام على الثورة ومدهم بالمال والسلاح أو تحريض العرب على الاستقلال عن الدولة العثمانية كتنونس ومصر، كل ذلك تحت ستار الحرية والمساواة التي دعت اليه الثورة الانجليزية ثم الفرنسية وغايتهم الخفية هي الاستيلاء على هذه الممالك ببسر وسهولة عندهم يعن لهم ذلك، فالرأسمالية الجديدة تتطلب كما سلف مواد أولية باثمان زهيدة وأسواقا لترويج صناعتها.

لذا رأينا جميع البلاد العربية وقعت تحت نير الاستعمار قبل نهاية القرن التاسع عشر الا المغرب الأقصى ومناطق لم يروا لهم فيها فائدة تجنى كالجزيرة العربية لانها صحراء قاحلة صعبة الاستثمار.

وقبل ذلك سعت هذه الدول الأوروبية (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) الى التوّد الى البلاد العربية، وبثت فتناسلها وجواسيسها وعملائها ومشتريها ومستعربها في أنحاء هذه البلاد بحثا عن الفترة المناسبة بل أصبح لها نفوذ على الملوك وأسباب ظهور عهد الامان أكبر دليل على ذلك ...

وبواسطة بعض القناصل وسفراء بعض الملوك العرب أو الوزراء إلى أوروبا أدرك العرب البون الشاسع الذي يفصلهم عن الحضارة المعاصرة وطمحت نفوسهم الأبية ونفوس بعض ملوكهم الكبيرة إلى اللحاق بركب الحضارة فكان أشبه بالشرك الذي وقعوا فيه أو الطعم الذي مد به اليهم الأوروبيون ليصطادوهم بادعاء تمكينهم من أسباب الحضارة أو تحضيرهم كما يقولون.

في هذا القرن المضطرب المليء بالمتناقضات الذي يتصارع فيه الواقع بالخيال والجهل بالعلم والطموح الى إعادة الماضي المجيد وإرساء حاضر مشرق مع ضيق ذات اليد وأعباء التخلف عاش مؤرخنا وعائش هذه

الاحداث، وكان من ذوي العزائم الصادقة الذين حاولوا جادين انتشار البلاء من التخلف، والتفكّم بها خطى في ميدان الحضارة المعاصرة وفي كتاب الاتحاف أكثر من موضع يؤكد ما ذكرنا.

ومن أهم الدّعائم لاقامة دولة متقدّمة في نظره هي الحرية والعدالة واليعد عن الحكم الفردي حتى أنه يقول عن ابن عياد الذي اختلس أموالا ووثائق للدولة وفرّ الى فرنسا وتجنّس بالجنسية الفرنسية، والحق أنه لا يعاب ابن عياد بنفس الهروب لان الخائف على نفسه وماله بمقتضى العقد والشرع له أن يتحصن بما يراه مانعا وإلا كان ملقيا بنفسه الى التهلكة والدولة يومئذ لا وازع فيها من شهوات الملوك (6).

لذا كان خلال عمله مع أربع بايات وهم (حسين وأحمد ومحمد والصادق) يعمل على إرساء مذهبه بطرق مرنة مستعينا بثقافته في التشريع والفقه وبرجال الشرع أمثال شيخه شيخ الاسلام المالكي سيدي ابراهيم الزياحي.

وزعم أفكاره فقد كان يحظى باحترام البايات، وتقديرهم لادراكهم صدق طويته، وانه لا يرمي إلا إلى إصلاح مملكتهم. لذا لم يكن عندهم مجرد كاتب أو باش كاتب أو وزير بل كان المستشار الذي يُهتدى برأيه وسعة ثقافته والجلس المخالط وصاحب السر المطلع على أدق جزئيات الحياة الخاصة للأسرة المالكة اذ كان يستشار حتى في تزويج إحدى بنات الباي مثلا، والعالم الذي يلتجئون إليه إن خفيت عنهم الاحكام الشرعية فيمدهم بها بتجرّد العالم النزيه.

وبعد هذه النظرة عن عصر الكاتب والقرن الذي عاش خلاله نعود إلى حياة المؤرخ فننتبّعها منذ طفولتها.

على أن المصادر التي ترجمت للمؤرخ شحيحة فلم نكد نعثر فيها على شيء من حياته الخاصة أو طفولته وأغلب ما يمكن الاعتماد عليه هو ما جاء في الاتحاف من حديث المؤرخ عن نفسه أو عن أبيه كما سبق.

فقد أنجب الحاج بالضياف بنتين ولكن لم ينجب من الذكور إلا أحمد، وقد كان شغوفاً به شديد العناية بتعليمه موصياً به المؤدبين ثم المدرسين وقد كان شاكر صاحب الطابع يعلم مدى تعلق بالضياف بابنه أحمد، لذا كان هو الآخر يوصي المشائخ به خيراً.

الا أن أحمد لم يكن ذا بنية قوية بل كان منذ صباه نحيفاً إلا أن الله قد عوّضه عن قوة البنية بذكاء ووقار وحافظة جيدة، ونشأ في ظل أب يطلب من الصالحين والعلماء الدعوات الصالحات لابنه حتى يكون ذا حافظة قوية تستوعب العلوم وتحيط بها.

ولعل الأب كان يأسف لعدم مواصلة تعلمه فاراد من ابنه أن يعوض ما لم يكتمل عند الأب وهذا أمر طبيعي، وبعد أن حفظ القرآن اخذ علوم القصة والتشريع واللغة عن اعلام عصره أمثال الشيخ التميمي شيخ الاسلام وابن عبد الله محمد البحري عبد الستار القاضي المالكي ومحمد بيرم الثالث شيخ الاسلام وابن اسحاق ابراهيم الرياحي وهو شيخ اسلام مالكي في العصر الحسيني والشيخ أحمد بن الخوجة القاضي الحنفي والشيخ المناعي الكاتب والشيخ ابن ملوك العالم الصالح...

ولما ملأ من العلم وطأه كما يقال أنعم عليه البايع حسين بخطه العدالة سنة 1227 هجري سنة 1822 وقال ابن الخوجة وقد كانت اذاك من الخطط العالية الشأن مشار إلى صاحبها بالبنان وتصدر للعدالة بالحاضرة مع شيخه وأستاذه محمد المناعي الذي كان جليسه وقد كان له خير مرشد ونصوح في هذه المهنة فأخذ عنه وأتم تكوينه في حقول التوثيق والتقارير والرسائل.

غير أن أحمد بن أبي الضياف وهو في سن العشرين لم يكتف بنشاطه العدلي بل كان كثيراً ما يرى إلى جانب أستاذه القاضي محمد البحري عبد الستار يحزر له بعض الوثائق التي كان القاضي في حاجة الى سرعة إنجازها، وهكذا انتشرت شهرته - التي لم تفارقه - ككاتب مثقف بارع التحرير ومتحدث لبق ساحر الحديث، وبعد خمس سنوات من مباشرته لوظيفة العدالة، وقد دأب صيته ككاتب بارع جلبه البايع حسين الى العمل في القصر

وأولاه كتابه سرّه وألحقه بكتابة وزيره الشهير شاكِر صاحب الطابع على كره من أبيه وذلك سنة 1242 هجري وسنة 1827 م وأصبح مؤرخنا وهو في عنفوان شبابه الموظف السامي الذي يقوم بالاتصال بين الباي ووزيره للخزينة شاكِر صاحب الطابع، بل أصبح يحظى بحضور مجالس الاستشارة ويبدى رأيه في المسائل العليا للدولة.

وظل على تلك الحال إلى أن توفي مصطفى باي وتولى ابنه المشير أحمد باي الملك سنة 1253 هجري الموافق لسنة 1837 م الذي كانت له علاقات طيبة مع ابن أبي الضياف فقربه وعرف عفويته وجعله من خواصه وأصبح له الكاتب والمستشار والجلس يستعذب حديثه وروحه للمرحة وسعة علمه وثقافته فأوكل إليه أحمد باي أغلب أعمال باش كاتب، وهو إذاك محمد الاصرم لحرازة بينه وبين مصطفى خزنة دار ثم أصبح الباش كاتب لا يأتي إلى القصر إلا نادرا، ونظرا للخدمات التي قدّمتها أسرة الاصرم إلى أسرة الحسينية فقد حافظ الباي على تسديد راتبه ولم يعز له من وظيفته ولكنه لم يرغب كذلك في حضوره، وتولى أحمد بن أبي الضياف وظائف باش كاتب دون أن ينال لقبها حتى أصبح بعض القناصل يكاتبونه بلقب باش كاتب.

وقد سبق لنا أن قلنا إن محنة الحاج بالضياف التي مرّ بها من عزل وسجن وأخذ كل أمواله كانت ذات تأثير كبير على تكوين شخصية ابنه الذي عاش بعض تلك المحنة في صباه، فقد اتعظ أحمد بن أبي الضياف لما أصبح موظفا ساميا بالقصر بحياة أبيه الذي اشتهر بخصال هي الوفاء المطلق للمخدوم وخاصة مع أبي النخبة يوسف صاحب الطابع، لذا فإن الابن ادرك خطر ذلك وتجنّب الوقوع فيما وقع فيه والده من الارتباط الوثيق بالمخدوم بل حافظ على شيء من التوازن وعدم التورط مع ربط علاقات طيبة مع أعضاء الأسرة المالكة والوزراء إلا أن المؤرخ لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب والتعلّق بالمشير أحمد باي الذي نال أكبر حظوة معه فأرسله في سفارات إلى تركيا وسافر معه إلى فرنسا، وكان مودع أسراره وإن لم يعفه من النقد من إتقافه خصوصا في أحكامه الفردية.

وفي أول عهد أحمد باي كاتب الدولة التركية باللغة العربية لأول مرة برسائل حملها الشيخ ابراهيم الريحاني الذي سافر في سفارة الباي إلى تركيا محاولا إسقاط الخراج على تونس، وقد نجحت سفارته، وقد كان هذا الباي ولي نعمة ابن أبي الضياف حقا فهو الذي رفاه إلى رتبة آلاي أميني في 28 محرم 1258 هـ، ثم رفاه إلى رتبة أمير لواء وقلده نيشان الافتخار في سنة 1265 هـ و 1849، بل انه أراد توليه خطة شيخ الاسلام المالكي بعد وفاة أستاذه الشيخ ابراهيم الريحاني، الا أن المؤرخ كان متعلقا بخدمة المخزن فرشح لها الشيخ أحمد ابن الحسين.

وبعد وفاة المشير أحمد باشا باي تولى الملك محمد باي الذي أبقى للمؤرخ امتيازاته وجلب معه صهره الشيخ بيرم الذي زاحم الكاتب في وظيفته وتولى حتى كتابة الرسائل إلى الملوك مكانه.

إلا أن هذا الباي يختلف عن سلفه الذي اشتهر بحب الاطلاع فكان محمد باي شديد التسرع في الاحكام وتنفيذها سفاكا للدماء.

يستشير ولكن لا يعمل بما أشير عليه به، انما ينفذ ما يراه هو وقد جرّ عليه ذلك الويلات وأصبح الشيخ بيرم يحتل الكثير من وظائف ابن أبي الضياف الا انه وقع خلاف بين المجلس الشرعي والباي، فأعيدت للمؤرخ مهامه وزادت حادثة اليهودي الذي يعمل كرطون عند القائد نسيج رئيس اليهود في رد كل اعتبار المؤرخ وبروز شخصيته على كل الجماعة المتلقة القصر من المعاليك أو رجال الشرع.

فقد اتهم هذا اليهودي أنه سب دين الاسلام وهو سكران فقبض عليه وبلغ الامر الى الباي فأمر أن يحال على المجلس الشرعي لكن شيخ الاسلام الحنفي رفض النظر في هذه القضية وأحالها على المجلس الشرعي المالكي المعروف بتمشده فحكم بقتل اليهودي وأبلغ الحكم إلى الباي فأمر بتنفيذ الحكم في نفس اليوم وأعدم، فثارت ثائرة يهود فرنسا وقالوا إن اليهود في تونس

أصبحوا غير آمنين على دينهم وأرواحهم وأتى فنصل فرنسا إلى الباي وقال له
كان الاجدر به ان لا يتمرّع وكذلك فعل فنصل الانجليز.

وأتى الاسطول الفرنسي في أوائل سنة 1274 به تسعة أحفان بها نحو
سبع مائة مدفع وأمير عظيم من شيخ الفرنسيين اسمه تريوار، ورسى بحلق
الوادي ونزل قائده ومعه الاعيان والتقى بالباي في قصره وطلب منه ايجاد
قوانين تسيّر عليها دولته وتحفظ أمن وحقوق المواطنين وحرية الاديان ونحن
أتينا لنعينك على من يخالفك على ذلك ...

وعاد إليه فنصل الفرنسيين في الغد ونصحهم بالقبول وأنه أمر لا بدّ منه،
وكذلك فعل فنصل الانجليز وهدد الباي بأن أسطولهم بمالطة.

وأذعن الباي بتهديدات أوروبا وأمر أحمد بن أبي الضياف بإعداد عهد
الأمان الا أنّ المؤرخ قال له إنّها مسؤولية كبرى إنما سوف أحرّر العهد الليلة
ثم أقرأه عليكم فتقحمون منه ما تشاؤون وبعد عمل مرهق وسهر إلى آخر
الليل أعد المؤرخ عهد الامان، وفي الغد وقع تنقيح بعض بنوده بالزيادة أو
النقص وإبقاء الأخرى على حالها، وأعجب فنصل فرنسا وانقلترا به وأخذ
فنصل فرنسا نسخة منه وهو أول دستور تونسي وعربي، وأعاد المؤرخ
تحريره بعد التنقيح وقّعه في قصر باردو بتاريخ 24 محرم 1274 سبتمبر
1857 أمام رجال الشرع والوزراء والقناصل وأمير البحر.

تلا جزءا منه المؤرخ ثم تولى تلاوة البقية البايجي المسعودي لنوبة من
الكحة ألمت بالمؤرخ نتيجة الازهاق، إلا أن المؤرخ أحمد بن أبي الضياف لم
يكن راضيا على هذا الدستور لأمور منها أنه مفروض من الدول الاجنبية،
لانه سوف يوفر امتيازات للاجانب لم تكن لهم كحق امتلاك الاراضي وحرية
التجارة والصناعة كبقية المواطنين من أهل البلد.

وبعد وفاة محمد باي تولى الصادق باي العرش ولكن يبدو أنه لا يثق
كثيرا في هذا الكاتب الذي يعرف كل أسرار الدولة والأسرة، لذا فقد جلب معه
كاتب سره عبد العزيز بوعتور وأصبح مزاحما بكل جرأة لابن أبي الضياف
في خطته ككاتب أول وأصبح يحزّر الرسائل ويخاطب الملوك على لسان

الصادق باي بل عندما توفي محمد الاصرم فإن الصادق باي أولى عبد العزيز بوعتور في هذا المنصب وكانت صدمة مُلَمة للكاتب وأخذ يتوارى شيئاً فشيئاً ويتعد عن النشاط الاداري.

على أن هناك حزاة لا شك فيها بين الصادق باي وأحمد بن أبي الضياف فنحن نجد في ترجمة ابن الخوجة للمؤرخ رسالة من الصادق باي وهو ولي عهد أو باي لا محال مليئة بالثناء والتمجيد للمؤرخ ولكن فيها مرارة ولوم لعدم رد المؤرخ على خطاب كان ارسله الصادق باي لأحمد بن أبي الضياف.

ولما ارتقى ابن أبي الضياف الى رتبة وزير ونال لقب أمير لواء في شوال 1277 هـ - 1861 م وقد أحدثت في مثل هذه السنة لجنة مكلفة بالنظر في القضايا بين التونسيين والأجانب وقد رفض القناصل ومواطنيهم الانصياع للتشريع التونسي الجديد فأسند للوزير أحمد بن أبي الضياف رئاستها وقد أطلق المؤرخ على هذه المهمة التي أنيطت بعهدته «المحنة» لما تحمله من مشاق.

وبعد استقالة الوزير المصلح خير الدين في جمادي الأولى سنة 1279 الموافق لنوفمبر 1862 م ولي خزنة دار رئاسة المجلس الكبير وعين ابن أبي الضياف مستشاراً ثانياً لرئيس المجلس ثم سلم خير الدين في وزارة البحرية فولي خزانة الجمع بين رئاسة المجلس الكبير والوزارة الأولى ووزارة العمالة والشؤون الخارجية، ويقول أحمد عبد السلام في كتابه المؤرخون التونسيون في القرن 17 - 18 - 19.

هناك وثائق في الارشيف يعود تاريخها إلى 1864/1867 تذكر أن ابن أبي الضياف أسندت له مهمة مستشار للشؤون الخارجية.

ثم توارى المؤرخ وانعزل عن كل نشاط إداري شيئاً فشيئاً إلى أن عاد خير الدين إلى الحكم سنة 1870 فأسند إلى ابن أبي الضياف وظيفة مستشار أول بالوزارة الأولى، ولكن بعد سنتين اعتزل الوظيفة لظروف

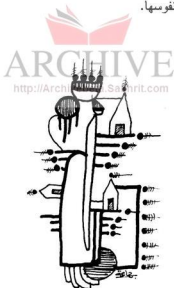
صحبة ولازم بيته في ذي القعدة سنة 1286 هـ الموافق لجانفي 1872 ولم
يقطع عنه راتبه اكراما له.

وتفرغ لكتابة تاريخه حتى أتمه ويقول في الصفحات الأولى من تاريخه
عدد من التأليف - لا سيما والشببية ولت والقريحة كلت والقوى ألفت ما فيها
وتخلت.

وتوفي المؤرخ يوم الثلاثاء سبعة عشر من شعبان 1291 الموافق
لاكتوبر 1874.

وحضر جنازته المشير الصادق باي والوزراء والاعيان ودفن بجامع
صاحب الطابع بالحفاوين حذو قبر والده الحاج بالضيايف.

على أن من نسل هذا الوزير أربعة اجيال متعاقبة ظلت تحتفظ للجد
بمكانة عظيمة في نفوسها.





من هدير الاعماق

للشاعر الهادي نعمان

مهداة إلى روح الفيلسوف ابن سينا

تَبْعِي الْخَلَاصَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَسْفَلِ
وَرَفَاءَ لَمْ تَجْنَحْ لِأَيِّ تَذَلِّ
أَبْدًا تَرَى هَذَا الْوُجُودَ يَضِيْقُ عَنْ
أَمَالِهَا وَفِي النَّبِيِّ لَمْ تَكْمُلْ
نَقَصَتْ وَمَا نَقَصَاتُهَا مِنْ عَجْزٍ
وَالْعَجْزُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ الرَّذِيلِ
أَخَذْتُ الْهَدِيلَ عَلَيْكَ بِاللَّحْنِ الَّذِي
تَبَغَيْتُهُ فِي نَفْحَةٍ وَتَهَلَّلْ
فَلَقَدْ سَمِعْتُكَ تَنْشُدِينَ لَدَى الدُّجَى
أَنْشُودَةَ الْمَثَلِ الْعَظِيمِ الْأَمْثَلِ
كَيْمَا يُعَانِقَ لَحْنُكَ السَّمَاءِ الْعَلَا
مُتَخَلِّصًا مِنْ عَالَمٍ لَمْ يَخْفَلْ
إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ الْخَلَاصُ نَسَامِيَا
مِنْ رِبْقَةِ الْقَيْدِ الْمُثْقَلِ

من ديوان : حساب السنين : للاستاذ الشاعر الهادي نعمان الذي
سيصدر قريباً عن الشركة التونسية للتوزيع بتونس.

إِنِّي سَمِعْتُكَ فِي الدُّجَى فَتَطَلَّعْتُ
 آمَالَ مَوْجِ الْبَحْرِ لِلْمُسْتَقْبَلِ
 مَرَحَى حَمَامٍ ظَلَّ يَسْكُنُ شَاطِئَنَا
 وَعَرُوسُهُ الْحَسَنَاءُ عِزُّ الْمَائِلِ
 إِنِّي أَبَادِلُكَ الْغَنَاءَ فِي ظُلْمَةٍ
 حَتَّى يُطْلُ الْبَذْرُ بَعْدَ تَذَلُّلِ
 الْبَذْرِ ذَاكَ عَرُوسُ شَاطِئِكَ الَّذِي
 مَا أَنْفَكَ يَدْعُونِي لِكُؤْنِ أَجْمَلِ
 مَنْ خَلْفَ أَعْمَاقِ الْبَحَارِ تَذَقُّتُ
 أَنْغَامِي السُّكْرَى بِحُبِّ أَمْدِلِ
 لِكَيْتَنِي قَدْ شِمْتُهُ مُتَوَهِّمًا
 كَرُؤَى تُصَادِمُ بِالصَّبَاحِ الْمُذْهِلِ
 قَدْ شِمْتُهُ فِي الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي
 دُنْيَا الْهَوَى فِي شَعْرِهَا الْمُتَذَلِّ
 فِي بَسْمَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا تُقْصِي الْأَسَى
 فِي زَوْجَةِ الْحُسْنِ الَّذِي لَمْ يَجْهَلِ
 فِي نَظَرَتِهَا تَمَلَّانِ خَوَاطِرِي
 حَتَّى أَتُوبَ كَرَاهِبٍ مُتَبَيِّلِ
 فِي فِتْنَةِ الْحُبِّ الَّذِي لَا يَنْتَنِي
 ثَمَلًا مَدَى الْأَيَّامِ لَمْ يَنْبَدِلِ
 فِي قَدَّهَا الْمَمْشُوقِ فِي خَصَرٍ بِهِ
 سِخْرٍ وَفِي الصَّدْرِ الَّذِي لَمْ يَذْبَلِ
 فِي وَجْنَتَيْهَا فِي التَّفَاتَةِ جِيدِهَا
 فِي ثَغْرِهَا الْمَعْسُولِ وَالْمُتَعَمِّلِ
 فَيَلْبِلُهَا فِي فَجْرِهَا فِي كُلِّهَا
 فِي لَذَّةٍ شَطَطَتْ وَسُكْرِ أَقْبَلِ
 قَدْ شِمْتُهُ فِي هَذِهِ فَإِذَا بِهَا
 أَفْعَى وَذَاكَ تَقَلَّبَ وَتَحَوَّلِ

فِي حِصْنِهَا الْخُدَّاعُ أَلْفُ شَقَاوَةٍ
 فِي لَحْمِهَا الْمَأْكُولُ شَرُّ الْمَأْكَلِ
 يُغْرِي أُتُونَتَهَا وَيَقْتُلُ مَجْدَهَا
 وَهُمْ تَرَكُّزٌ مِنْ زَمَانٍ أَوَّلِ
 وَهُمْ هُوَ الْوَهْمُ الَّذِي مَا إِنَّ لَهُ
 نَشَتْ فَيَمُوتُ الْوَهْمُ سَفَلَ الْأَرْجْلِ
 يُغْرِي أُتُونَتَهَا وَيَسْتَلِيبُ الْقَوَى
 مِنْهَا خَيَالُ الْمُنْطِقِ الْمُسْتَقْبَلِ
 قَدْ شِيعَتْ فِي هَذِهِ فَوَجَدْتُ فِي
 حُبِّي ظَلَامًا فِي سَقَالَةِ مُوْغِلِ
 فَتَنَكَّرَتْ آمَالِي السَّكْرَى لِمَنْ
 قَدْ خَلَّتْهُ مِنْ قَبْلِ رُوحِ الْمَوْتِ
 وَأَتَيْتُ فِي هَذَا الظُّلَامِ لَعَلِّي
 أُمُّ الْهَدِيدِ أَرَاكِ دُونَ تَبَدُّلِ
 حَتَّى وَلَوْ كُنْتُ الْمُغَرَّرَ فِي الدُّنْيَا
 رُوحِي لِوَجْهِكَ يَا هَوَى لَمْ يَتَخَلْ
 أَخْلَصْتُ أَخْلَصْتُ الْوُجُودَ لِنِعْمَةٍ
 تَخْنُو وَتَتَلَّى فِي وُجُودِي الْمُحْمَلِ
 أَبْدًا أَغْنَى الشَّاطِيءِ الْمَهْجُورِ فِي
 لَيْلِي وَأَشْدُو بِالظُّلَامِ الْأَلِيلِ
 نَعْمًا أَرْدُدْ يَا حَمَامَةَ بَاطِنِي
 حَتَّى أَعِيشَ عَنِ الشُّرُورِ بِمَغْرَلِ
 وَالْمَوْجُ يَسْمَعُنِي وَيَحْمِلُ مَنِيَّتِي
 لِلْمَجْدِ لِلتَّأْرِخِ لِلْمُسْتَقْبَلِ
 لِلْعَالَمِ الْمَرْجُوِّ لِلْكَوْنِ الَّذِي
 أَبْنَى بِإِحْسَاسِي الشَّقِيَّ الْمُنْقَلِ
 لِأَخِي أَخِي الْإِنْسَانِ أَجْلَوْهَا رُؤَى
 تَخْنُو بِهِ نَحْوَ السَّلَامِ الْأَكْمَلِ

أَخْبَىٰ أَيَا أُمِّ الْهَدِيلِ شَقِيقَتِي
لَا تَسْكُنِي فِي الْخُلُوِّ أَوْ فِي الْمَحْفَلِ
فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي الْفَجْرِ أَوْ عِنْدَ الْمَسَاءِ
لِلأَذْكِيَاءِ الطُّفَحِ أَوْ لِلْغُفْلِ
لِلْمَوْجِ أَوْ لِلرَّمْلِ فِي صَحْرَائِهِ
لِلْحَاضِرِ الْبَاكِي لِعَهْدِ مُقْبِلِ
لَا تَسْكُنِي لَا تَطْلُبِي وَهَمَّ الْخَلَا
صِ فَلَا خَلَاصَ لِرُوجِكَ الْمُتَحَمِّلِ
إِنَّ الْحَيَاةَ أَمَانَةً حُمِلَتْهَا
مَا كَانَ يَرْفَعُ مَجْدَهَا قَلْبُ خَلِي



مذكرات كامل التونسي

نظرا للتداخل الذي حدث في فقرات المدخل الذي قدم به
الاستاذ عبد الرؤوف الخنيسي لمذكرات الاستاذ الشيخ محمد
الكامل التونسي المنشور بالعدد الماضي بالاحتلاف فإننا نعيد نشره
مع الاعتذار للاستاذ الصديق وللاصدقاء القراء.

في الدفاع عن الاسلام المصطفى وبعيدا عن الشعوذة والأقنعة السامة

تقديم : عبد الرؤوف الخنيسي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أعتقد أن الأستاذ الشيخ محمد الكامل التونسي - برّد الله بالرحمة مثواه -
شخصية وطنية مميزة في تاريخ النضال الحق والدفاع عن مقومات
الاسلام، بعيدا عن الشعوذة والدروشة، واتخاذ الأقنعة المسرحية المفتعلة...

كذلك أعتقد أن الفقيه العزيز محمد الكامل التونسي من الوطنيين
الصادقين، الذين ناضل في سبيل حرية تونس وكانت محاضراته وكتاباته
بسوريا شاهدا عليه، يوم جعل من بيته في دمشق «بيت تونس» حيث كانت
ملتقى للزعماء الأحرار وطلبة المغرب العربي، ومنندى قوميا لصفة من
متقفي السياسة والوطنية ورجالات الأدب والثقافة الذين وجدوا في شخصية
الشيخ الأستاذ أريحية النفس الكبيرة، وسعة الفكر التقدمي النير، وروح
المناضل الصادق الذي عمق في النائبة العربية، من تونسيين ومغاربة
وسوريين حب العروبة والوحدة على خطى الشاعر القروي :

هَبُونِي دينا يجعل الغرب أمة وسيروا بجثمانِي على دين برهم
سلام على كفر يوحد بَيْننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

وستجد في هذه الصفحة من مذكرات وتأملات «أستاذنا الشيخ» محمد الكامل التونسي شخصية رجل قروي تعمق إيمانه بربه، وارتبط كيانه وحسه بترابه ووطنه، مستعملا النظر في شؤون دينه ودنياه، داعيا إلى نبذ الطرق الدنيئة المزيفة وأساليب الشعوذة التي علقت بقرية أمنة مؤمنة ذات حقبة من تاريخ تونس الدامع الحزين، متلماذا على يد مصلح مغبون يدعى عثمان بن الخوجة أهده مذكراته بقوله :

إلى تلك الروح الوثابة والفكر الوقاد والقرينة النقادة. إلى ذلك الجندي المجهول الذي عاش وحيدا فريدا أنكره قومه ولم يعرفوا فضله. إلى من كشف أمام عيني الحقائق... إلى من أعجب بي وأعجب به فكان لي والدا شقيقا وأستاذنا مخلصا ومرييا حكيما. إلى المسلم الصادق في إسلامه. البرّ بدينه. الممثل لربه. إلى تلك الروح الطاهرة روح أستاذي المرحوم عثمان بن الخوجة آملا أن أوفي بعض ما علي من الحقوق التي طوق بها عنقي وجعلني مدينا له إلى أن ألقاه في دار البقاء.

بهذه الكلمات الوافية النفيسة يحدثنا الشيخ الأستاذ عن شيخه وأستاذه المصلح الكبير... المصلح المغمور المغبون عثمان بن الخوجة...

وستجد في هذه الورقات التي حصل لنا شرف كتابتها وتسجيلها من قبل أستاذنا الفقيه، أن محمد الكامل التونسي اتخذ القرآن المبين منارة للفكر وهديا مبينا وحجة في وجه المتزمتين الذين لبسوا الباطل و«تزندقوا» على حساب الاسلام المصفى... الاسلام الحق، في ظرف إيسم بالخنوع والخضوع، واتسم بكل مظاهر القنوط والتحجر والفراغ العقلي.

وقد اعتمد في مذكراته على الأحاديث النبوية الصحيحة، أي على ما اتفق عليه من صحيح الكلام المحمدي الشريف، متماشيا وما في الكتاب المبين من آيات بينات في وضوح الحقيقة الالهية السرمدية.

وستعلم - أنار الله بصرك وبصيرتك - أن الشيخ محمد الكامل التونسي، ومن خلال هذه الورقات الومضات التي ننوي نشرها، عبر «الاتحاف» الأثيرة كان رجل إصلاح وتربية وثقافة بكل ما تعنيه هذه الكلمات من سمو وعفة ونقاء فكري، قوَّض أصحاب الطرق الرجعية، صامدا كجذع زيتونة في وجه الخطَّاب...

أما سيرة محمد الكامل التونسي الذاتية والوطنية والقومية والتربوية، فبإيجاز هي سيرة رجل شهم، قوي الشكيمة، لا يخشى في الحق لومة لائم، فعلى يديه تتلمذ مئات الأساتذة والأدباء والشعراء والسفراء في سوريا الشقيقة وفي دمشق الفحاء بالذات كان جدول الصادي و«أرغول» الحادي بفضل ما كان يتصف به من عمق التربية وشفافية الحس القومي وصدق الوطنية العربية المسلمة.

ولئن استثمر رجال «مكتب المغرب العربي» بين دمشق والقاهرة، سنوات النضال، واستعرضوا - عضلاتهم - بعدما تحررت أقطار المغرب العربي، فإن الأستاذ محمد الكامل التونسي لم يستثمر نضاله... ولم يطلب منصبا أو جاها... عاد إلى تونس في أوائل الاستقلال، مدرسا عاديا بالحي الزيتوني، مدرسة ابن شرف، مكونا نابئة طالبة قومية تؤمن بشعار :
نقضي الرجولة أن نمذ جسومنا جسرا فقل لرفاقنا أن يعبروا

ولقد عاد إلى الوطن بعد أن تغنى مع الشاعر القروي :

بُنت العروبة هيئي كفني أنا عائد لأموث في وطني
أجود من خلف البحار له بالروح ثم أضئ باللبـدَن؟

...ولقد كان رحمه الله تحفة أخلاق وظرف... ومنجم كرم وعطاء، تاركا صفوة من الأنباء الأجلاء وعائلة جدية بالتقدير والحب والوفاء.

(2)

من نظام الكلية الزيتونية ان تكلف الادارة مستخدميها قبل البدء في الدروس ان يكتبوا اسماء الاساتذة والمادة التي يدرسونها واسم الصف والساعة التي يعينها الاستاذ ولكل مادة عشرات الاساتذة ثم تعلق على حائط في مكان خاص فإذا ما جاء التلاميذ من الأرياف أو العواصم ذهبوا توا إلى هذا المكان فيرتبون ساعاتهم ودروسهم وينتخبون من الأساتذة. وقد يرغم التلميذ على استاذ لساعات يريدتها أو لتزاحم في الدروس أو لمرافقة صديق وأكثر ما يرغمنا على بعض الاساتذة هو السعي لبقاء وقت نهيبه فيه طعامنا لاننا كنا ندير شؤوننا بأيدينا ولعل أغلب هذه العوامل دفعتني إلى أن أتجه إلى الاستاذ عثمان واجلس في حلقة درسه. وأذكر انني عللت نفسي بان الدرس لا صلة له بالحديث. ولم أعلم ان الدين عند الاستاذ عثمان كان نورا يشع على البلاغة والنحو والمنطق والفقه بل يتعدى إلى الجغرافيا والتاريخ وغير ذلك.

جلست أمام الاستاذ أول يوم مع غيري ممن أعرفهم ومن لا أعرفهم وكانت العادة ان نهيبه الدرس قبل سماعه من الاستاذ كما يهيبه الاستاذ لتكون المناقشة على بصيرة ثم بدأ الاستاذ في الدرس وثارَت المناقشة في بعض المشاكل وفي طرق فهمها. أما أنا فكانت لا أقدر على ان ادخل امثال هذه المناقشات لانني ريفي والريفي مفرط في الخجل وأخشى أن اخطيء فيما اذهب إليه. ومع هذا فقد فهمت الدرس واستوعبت ما دار فيه ولا اعتقد انني فهمت درسا قبله في السنة الماضية كما أنني لم اشعر بمثل وقد وددت ان يطول هذا الدرس أكثر مما قدر له. ثم اخذ كره الاستاذ يضعف في نفسي وصورته تجلو في خاطري وكلما زدت درسا كلما اقتربت نفسي من نفسه وربما أدرك هو خجلي فحاول أن يدفعني إلى الجرأة الادبية فأخذ يوجه إلي بعض الاسئلة فأجيب في ارتعاش ورجفة ومع ذلك كان يطربه جوابي فأيقن ان صممتي أثناء المناقشة كان ناشئا عن خجل لا عن سقم في الفهم وبعد وقت قصير شاهدني في طريق يقل فيه المارة ويطول في المسير سألني عن بلدتي وقبيلتي وأسرتي وما أخبرته عن ذلك حتى استبد به الاستغراب.

بعد ان علم انني من قوم غرقوا في الطرق (هذا ما حدثني به بعد ان بلغ معي حد الصراحة) وحدثني انه عزم على ان يزيل تلك الغشاوة التي رانت على قلبي من الميراث الذي ورثته من الاجداد كما اعتمد ان يكون حكيما في توجيهي وخشية ان تمنعني أمرتي من الاستمرار في التعليم وهو خبير بهم وبنزمتهم⁽¹⁾. وفي اليوم الثاني أخذ كل تلميذ مكانه في الحلقة وبدأ الأستاذ في الدرس واذكر ان الدرس كان في البلاغة وفي باب التشبيه فاستشهد بقول الشاعر :

وكان النجوم بين دجاها
سنن لاح بينهن ابتداع

ثم شرح هذا البيت وبين بعض البدع التي لا تثير حفيظتي ويمكن ان استسيغها فلم ير في انكارا. ثم تعرض للمتصوفين كما جاء ببعض ابيات من شعرهم واعترض عمن ينظم الشعر في الاله، لان الحكم عن الشيء فرع عن تصوره «قال : واني لأعجب من هؤلاء القوم الذين يجسمون الله ويسندون له صفات الانسان فتارة يفدونه بارواحهم وأخرى يقولون له (عرفت أم لم تعرف) والمعرفة مسبوقة بجهل لا يوصف بها الاله وهم قد اثبتوا له المعرفة ثم نفوها عنه. وهناك من يطلب منه ان يراه حقيقة ولا يقابله بما قابل به موسى فيقول له (لن تراني) وتجاوزوا هذا فقالوا «امام العاشقين) واللغة العربية لم تستعمل مادة العشق في محبة الله والقرآن الذي جاء ليعلمنا قال : (قال ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ولم يقل : ان كنتم تعشقون الله فاتبعوني يعشقكم الله. وهنا رفعت يدي فتوقف عن الكلام والتفت إلي باهتمام وقال تكلم بصراحة فقلت :

ما قولك في سيدي عمر بن الفارض أجابني جوابا ما كنت انتظره منه فقال : وبذلك أعني وهو المقصود من كلامي «ثم أردف كلمات نسيء إليه وتخالف ما اعتقده في الرجل.

لازلت أنكر انني خشيت حينذاك ان يخر علينا السقف من فوقنا واذكر اني ترددت في ان استمر في دروسي عليه ام أغير ترتيب الدروس وانجو

بعقيدتي ولكن الساعة قد انتهت وانتهى معها الدرس فقام التلاميذ إلى درس آخر. أما أنا فقد جلست في مكاني لم أتحرك. فالتفت إلي وقال : لم لا تذهب إلى درسك وقد ذهب اخوانك. فقلت : لست في حاجة إلى العلم ان كان سيجرني الى تسفيه ما وجدته عليه آبائي واجداداي. ثم قلت وهل تسمح لي ان أوجه إليك سؤالاً واحداً أيها الاستاذ أجابني قل ما شئت فما جئت الى الكلية الا لأزيل الشبهات على ابنائي قل ما تشاء. فقلت : هل المسلمون منذ ألف سنة على خطأ وأنت على صواب. قلتها وأنا خائف اترقب غضبه لما في كلامي من تحد وجرأة وأنا الخجول المفرط في الخجل الا ان الاستاذ ابتسم وقال : صدق ظني في أنك على استعداد للشفاء.

- هل أنا مريض حتى اشفى.

- المسلمون كلهم مرضى.

- داووني ان كنت مريضاً كي أرى الفرق بين المرض والصحة.

- الدواء لا يعطى دفعة واحدة بل يعطى تدريجاً والا لقتل صاحبه. تمهل يا بني قليلاً فقد توسمت فيك الخير من أول يوم. ولعل الله ان يهدي بك قومك. ألسنت ترى ان اخوانك سمعوا ما سمعت ثم قاموا إلى دروسهم كأن لم يسمعوا شيئاً الا أنت قد اخذ الكلام من قلبك مكانه وازعجك. هذا ما جعلني مطمئناً إلى هدايتك. قم إلى درسك واترك الامور إلى أوقاتها. وانما أود ان لا تكثر الحديث مع اخوانك التلاميذ ريثما تقوى معك الحجة وتنمو فيك الملكة. ثم هل تحفظ القرآن. قلت أجل احفظه جيداً.

- هذا ما ابتغيه فالى اللقاء. وقام إلى بيته وقمت إلى دروسي في غيبوبة لا يعبر عنها بالكلام.

كان للاستاذ أخ تاجر فاتخذ الاستاذ غرفة في محل تجارته واعدّها لجلوسه ليجتمع فيها باصدقائه وما أصدقائه سوى التلاميذ الذين تأثروا بأرائه ومن هذا المكان تخرج كثير من رجال تونس والجزائر. فقد كان الاستاذ يرى ان العقول كالأجسام. فكم من جسم يعجز عن حمل شيء نافه وهناك

اجسام تحمل الصخرة الصماء وعلى ضوء هذا الاعتقاد كان لا يتسع في بحثه اثناء الدرس الا بمقدار ما يتحملة ضعاف التلاميذ ويأخذ أصحاب الاستعداد إلى درسه الخاص ليحادثهم في الدين والوطنية والاجتماع ويهيئهم لكفاح المستعمر وكثير من التلاميذ نالوا شهاداتهم واستمروا في العاصمة لملازمته كي يتابعوا أبحاثه الخاصة ومن هؤلاء تلاميذ الجزائر الذين حملوا لواء النهضة فيما بعد ولا زالوا يحملونها حتى اليوم.

وفي اليوم التالي طلبت منه ان نعود لبحثنا بالأمس فأشار على ان اترك ذلك لما بعد الدرس ولما انتهى طلب مني ان ننتم البحث في محله الخاص وان التحقق به مع بعض التلاميذ الذين اعتادوا ان يكرعوا من علمه.

كان الاستاذ كغيره ملزما بساعتين من النهار فيقضي استاذنا درسه من الساعة الثامنة الى العاشرة ثم يتفرغ الى الارشاد في مقره الخاص. ثم يقضي يومه بين عشرات التلاميذ يجادل هذا ويجيب ذاك واخوه مكلف بالبيع والشراء فاذا ما اشكل عليه مشكل رجع إلى رأي أخيه الاكبر فيرشده الاستاذ ثم يرجع الى جهاده مع ابنائه.

اذكر انني تولعت بأبحاثه وآرائه واذكر انني لازمته حتى بعد نيل الشهادة حتى اصبح يخصني دون اخواني التلاميذ فيما يطلعني عليه واذكر انه كان يكلفني بان اقوم مقامه في ابحاث كثيرة وقد كان يوجهني للمناظرات مع مشائخ الطرق وغيرهم فوجهني يوما إلى مناظرة شيخ الطريقة الملاوية ونائب رئيسها الشيخ محمد المدني وكانت المناظرة عامة يحضرها من شاء وقد اعلن عنها قبل وقتها.

وقد تعرضت ليلة من ليالي السمر لأحمد التجاني صاحب الطريقة النيجانية فنقل عن بعض اتباعه الى قاضي العاصمة وهو الشيخ الصادق النيفر وقد كان حاملا لواء المقاومة جنبا لجنب مع الاستاذ عثمان ثم اعتنق الطريقة النيجانية لأنها طريقة ملك البلاد وأسرته وقد دعاني القاضي المذكور ليرشدني على زعمه أو ليهديني فاستشرت الاستاذ عثمان في الأمر فأكد على الاتصال به وزودني بما يفهم القاضي وأوصاني ان أكون معه صريحا إلى أبعد حدود الصراحة.

ومما قاله : احذر بني ان تستشهد بكلام المخلوق. عليك بكتاب ((لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله))⁽¹⁾ أفرع الرجل بالآيات وهو عالم بها يدرك مدلولها ولكنه أثر الحياة الدنيا على الآخرة. ذهبت الى الرجل وباحثته طويلاً وأوشك ان يعترف بان الظروف دفعته إلى سلوك هذا الطريق وان ارضاء الرأي العام وبالتالي ارضاء ملك البلاد من لوازم الحياة وقد نلت الشهادة بعد ان علم الناس انني صورة طبق الأصل من الاساذ عثمان.

وكم كان الاساذة يتخرجون من مجادلتني معهم في دروسهم كلما جرحهم البحث الى ما يتصل بالبدع أو السياسة أو ما لم يسلمه العقل.

لا تطلب مني أن أروي لك حديث الاساذ باللفظ وقد مر عليه ما يزيد عن ثلاثين سنة⁽¹⁾. اعتقد ان ذلك من العسير ان لم يكن من المستحيل. وانما سأحاول ان أرويكم لكم بالمعنى ولا أدعي انني سأوفر لك المعنى حقاً وقد كان اغزر مني علماً وافصح لساناً وأكثر اطلاعاً وأقوى مني ادراكاً وحكمة. فإذا ما وجدت نقصاً أو رأيت خطأ فهو مني لطول العهد بيني وبين تلك المجالس. وقد كنت منذ ربع قرن جمعت ما يمكن جمعه من هذه الابحاث في كراس صغير ذهب مع ما أملك من الكتب التي صادرتها المستعمر فيما صادرت مني. ومع هذا سأحاول ان أقدم لك ما يريده الاساذ عثمان عساني ان اكون باراً به وأن أوفر له بعض ما علي من حقوق لأنه مات تحت كابوس الاستعمار وكابوس التعصب لم يطبع له شيء من نتاج افكاره. ولست اعلم ان كان له مخطوطات في مكتبته أو لم يترك شيئاً ولعل ابنه الفاضل السيد عمر الفارق يطبع لنا ما خلفه والده ان كان له مخلفات.

ولقد كانت المناسبات هي التي تقودنا إلى الموضوعات فلا تطلب مني ان اذكر لك كل مناسبة وكل حديث وانما أود ان أطلعك على ما للرجل من تفكير سليم وهذا يظهر ببعض الشيء لا بكلمة. وسوف اضرب صفحاً عن الأقوال التي هي لا تختلف عما في ضميرك وضمير غيرك منه الناس.

(1) سورة الحشر، آية رقم : 21.

(1) كتبت هذه المذكرات في عام 1961.

البيان رقم 1 : اعترافات عاشق

مَا عَادَ لِي
غَيْرَ الْمَرَاثِي خَالِيَةً
مَا عَادَ لِي
حُبُّ الْقَوَافِي مُسْتَبَاحًا
وَذِي الْمَرَائِبِ أَغْرَقَتْهَا الْعَاصِفَةُ

هَذَا دَمِي
يَا مَنْ عَلَى قَلْبِي غَفَتْ
يَا مَنْ جَفَتْ
لَوْ نُسْتَوِي قَلْعًا عَلَى قَلْعِ الزَّمَانِ
لَوْ نُنْتَشِي قَبْلَ الْأَوَانِ

هَذَا دَمِي
هَذَا شِرَاعُ الْمَرْكَبِ
يَا «أَنْسَ زَادَ» الْعِمْرَ فِي عَمْرِ الْحَمَامِ
شَفِي الْبَحَارَ عَلَى الْبَحَارِ
ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فَلَا قَرَارَ
وَلَا قَرَارَ
هَذَا دَمِي

بَحْرَ وَطُوفَانَ
صَدَّ وَكُفْرَانَ
يَبَّهَ وَنَسْيَانَ
لَيْلَ وَأُجْفَانَ

غَرَّقَ
عَرَّقَ
قَلَّقَ
أَرَقَّ

قُولِي لِمَاذَا الْهَجْرُ يَا أَنْثَى الضَّيَاغِ ؟
قُولِي الْوَدَاعَ

فَلَكِ الْأَمَانُ عَلَى الْأَمَانِ

مَا عَادَ لِي
غَيْرَ الَّتِي أَجْجَتْهَا نَارًا عَلَى ثُلُجِ الْفَوَازِ
مَا عَادَ لِي

غير الخطى الخُبلى بأخلام السواد
يا فحمة الرُوح التي ضنخت مَواعيد الوجع
يا قوسى المَحْرُوق في ليل الفزع
صناع الشذى
صناعت حياتي كلها
يا سيدي ! هل ...
هل حملتك سلامها !.

يا سيدي ! هل أنت حقاً سيدي ؟!
طال انقضارك يا فتى ..
لا تخفني ! أرجوك !
ربما تأتي الحمامة

يا سيدي !
إن عُلفتك فقل لها : «قُصِي على الصنجر» «الحكايا»
قولي لمن لا يشتهي غير البقايا
لن أشنكي عذر الصبايا
لا عطر يغري بسمتي ..

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

لا، لا مَرايا !
ما عُدْتُ أعشق صورتي
ما عدتُ أرقب بسمتي
أفقي ضباب
قدري سراب
كبدى على الجمر أنا وتر الفجيرة،
آه على آهات حسناني الوديعه !
آه على آهات الوجيعه !
أم العيون السود، لا !
ليست هنا !
شقراء لا !
شقراء ليست لي أنا

شَقراء للكأس الذي في النزل، للنَّقط،
 «للدُّولار» .. لا !
 شَقراء نَهَّدَ عَنقَتَهُ يَدَ البِغاءِ
 شَقراء فاتحة لأنس المبتدا
 شَقراء للَّيل الجريح المنتهى
 شَقراء عطر المنتدى
 شَقراء صدر ناعم
 وشفاهها أَمطار حقد الأغنياء
 سمراء لا !
 حوراء كَلَّا ! لا أرى فيها الوفاء
 أخْبَى عليها الأثرياء

★ ★ ★

كانت مسافات الخَدَر
 كانت عَذابات المرارة والصَّبَر،
 الرُّؤية الحرى حريق في الجفون
 لن تُنْشُدَ الدَّفءَ ولا ... حُورَ العيون
 العمر ضاع <http://Archivebeta.Sakhrir.com>
 والقلب قد غنى تلاحين الضياع
 لا أمنيات .. ولا مطر
 لا شيء قد يجتاح أورام الغمام
 حسناء شَدَّت والقدر !
 شَدَّ القدر !،،
 حسناء في كَفِّ القدر
 أَرْجُوهُ الصَّدَّ المُهَدِّدَ بالخطر
 مَمْشُوقَةُ القَدِّ المُطَرِّزِ بالعَجَزِ
 أَهْزُوجَةُ الوَدِّ المُبَدِّدِ لِلضُّجَرِ
 حسناء لا !. لن أُنْتَظَرِ
 قولِي جَفًّا

حسناء لا !، لن ننتصر !
 حسناء لا كُفْرَانُ بالماضي ولا ذاق انتصاراً من كفر،
 حسناء هيّا نرتحل
 فالأرض قد غنّت تلاحين الوداع
 لن ننتظر
 فنزّ الجِياح المُسغَبَة
 ولننطلق
 لا بدّ من فتح القلوب المُقفلة
 ولننتشي
 قبل صليل المُفصّلة
 عودي لأسوار المذائن !، لا مفرّ
 عودي لاسرار العبر
 عودي فلا بدّ الرجوع
 عودي فكم يحتاج للنهد الرضيع
 عودي فكم يشنق للزهر الربيع
 ردي الجواد إلى الصهيل
 ردي معين الروح للجسد القليل

محمد العياشي طاع الله





عمر بن عطية

1903 - 1968

بقلم : الحبيب الدريدي

□ نشأته - نضاله - سجنه

في فجر هذا القرن وبالتحديد سنة 1903 رأى المناضل المرحوم عمر بن عطية النور بمدينة سليانة وفي بيت يرتزق أهله من الفلاحة. فنشأ على حب الأرض الكريمة المعطاء وتربى على التعلق بالوطن وحفظه من المكاره.

تلقى دراسة تقليدية على أحد المؤدبين فحفظ نصيبا من القرآن في أحد الكتاتيب ثم امتحن العمل الفلاحي كبقية أفراد أسرته ولما بلغ السن القانونية نودي عليه للخدمة العسكرية ف قضى سنة بصفوف الجيش وكان ذلك في أوائل العشرينات.

ويؤكد كل الذين عاشوه أنه كان محبوبا لدى الجميع بحبه كل الناس ويحترمونه لبشاشته وطيب معاشرته وحسن معاملته للغير وكان يجمع إلى هذه الطباع تبرا كبيرا وسخطا واضحا على الأوضاع المتردية التي كانت تعيشها الجهة والبلاد التونسية عامة. فقد أتاح الاستعمار بكله على جميع أنحاء المملكة التونسية واشتدت وطأته في مثل هذه الجهات الفقيرة حيث غالى المعمرون وعملاء السلط الاستعمارية في استغلال خيرات الأرض أفحش استغلال وأمعنوا في إلحاق الضيم والعسف بالأهالي وحرمانهم أبسط حقوقهم في العيش الكريم والحياة الحرة. فكان لتلك الوضعية أبلغ الأثر في نفسية ذلك

الفلّاح المتواضع والمحبوب فألّى على نفسه ألا يترك المقاومة والنضال إلا وقد تطهّرت الأرض من رجس المستعمر وتحرّرت من قيود الغاصب أو أريق دمه في سبيل وطنه العزيز الذي لا يرضى له بعيش الذلّ والمهانة وحياة القهر والمظالم.

سارع عمر بن عطية إلى الانخراط في صفوف الحزب مسارعته إلى النضال في صلب الحركة الوطنية فشرع في تلقي تعليمات قادة الحركة وزعمائها وتنفيذ العمليات في حدود جهته وجمع الأنصار للحزب والحركة الوطنية وتنظيم الاجتماعات وإلقاء الخطب الحماسية التي كانت تجد الصدى الواسع لدى الأهالي وتترك الوقع الكبير في نفوسهم. ولكن سرعان ما نطق جواسيس المستعمر وعيونه إلى نشاطه المكثف فاقتحم رجال الجندرمة منزله وفتشوه فعثروا لديه على رسائل واردة من زعماء الحركة الوطنية فأحرقوا هذه الأوراق وقادوه إلى السجن بالعاصمة سنة 1937.

مكث المناضل عمر بن عطية خمس سنوات كاملة بالسجن ذاق خلالها ألوانا من التعذيب دون أن يتراجع عن مبادئه أو يرضخ لارادة المستعمر فكان أن ضرب المثال في الثبات على المبدأ وعدم الاستسلام للأمر الواقع وكان يصحبه في سجنه المناضلين الباهي الأدغم ومحمد بن امحمد أصيل دقاش.

وطيلة إقامته كان المناضل الحفناوي الدريدي رفيقه في المقاومة يزوره في سجنه ويمدّه بمؤنّته ويسأله عن أحواله وأحوال أصحابه إلا أن عمر بن عطية كان يردّ بقوله إنّه لا يعرف شيئا من ذلك ففهم الحفناوي الدريدي مقصده وأدرك أنّه مشوق إلى أخبار الحركة الوطنية وفي حاجة إلى مناشير قادة الحركة ورسائلهم ليتحرّك من موقعه وراء قضبان السّجن باعتبار تعرّض نقل هذه الأخبار شفويا للحراسة المشدّدة التي كانت مضروبة على المساجين السياسيين وزوّارهم.

ومن يومها أصبح الحفناوي الدريدي يجمع المناشير ويقصّ المقالات التي تكتب حول الحركة الوطنية في الصحف والمجلّات ويكتب آخر أخبار

المقاومين ويضع كل ذلك في قاع القفّة ويخيط فوقها قطعة من القماش المسمك ثم يملأها بالقوت والمؤن ويمير بها إلى السجن حيث رفيقه في النضال عمر بن عطية. وقد جعل الحفناوي الدريدي اسمه وقتئذ الحفناوي بن أحمد بن عطية حتى يتمكن من زيارته لأن السلط الاستعمارية تمنع غير أقاربه من زيارته.

□ قاد مظاهرة 1952 بسليانة

عند دخول الألمان إلى تونس تم الافراج على العديد من المساجين وكان من بينهم عمر بن عطية. فعاد من توه إلى عقد الاجتماعات العامة التي كانت تؤمها الحشود الكبيرة فيشحنها حماسا وعزما ويستثيرها لل كفاح ومجادة المستعمر والغاصب. ولكن ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية باننصار الحلفاء على المحور وحال عودة فرنسا إلى السيطرة على الموقف من جديد في البلاد أسرع أحد الجواسيس من العملاء إلى الوشاية بعمر بن عطية لدى سلطات الاستعمار وأعلمهم بعودته إلى عقد الاجتماعات وتحريض الأهالي على الثورة والغريب أن هذا الجاسوس كان يسكن مع عمر بن عطية ويدين له بالشيء الكثير. عندئذ جاءه أحد أصحابه ليبلغه بأمر الوشاية التي وصلت الى مسامع رجال الجندرية. وكان عمر بن عطية يعرف مقر إقامة صديقه الحفناوي الدريدي بالعاصمة فغادر سليانة وأتاه إلى منزله الكائن «بزقة الكليل» بتونس وأعلم أصحابه القاطنين معه أن أحد الجواسيس قد غدر به وأعلم سلطات الاستعمار بنشاطاته السياسية وانتظر حتى مجيء صاحبه الحفناوي الدريدي من عمله بمذبح العاصمة الذي استغرب وجوده هناك فقصّ عليه الضيف حكايته مع الجاسوس غير أنّ الحفناوي الدريدي عرض عليه العودة إلى سليانة فرفض قائلا إن فرنسا هناك ولن تتركه على قيد الحياة إذا ألقت عليه القبض هذه المرة.

ولم يكن تحوّل عمر بن عطية إلى العاصمة لينجيه من عيون السلطات الاستعمارية إذا التحق به الجاسوس الواشي إلى هناك وفي الاثناء أحضر له الحفناوي الدريدي عربة يجرها حصان وألبسه «سفاري» وخرج به منتكرا

إلى جهة الدندان حيث دار ابن عمه محمد بن أحمد (شهر سفود) وبقي يتردد عليه ليلا لزيارته حتى عودته الى سليانة.

وقد أراد بعض أعداء الحركة الوطنية وقتئذ أن يتأمرؤا ضد عمر بن عطية فأوعزوا لعمال الطرقات بالاضراب مدعين أنه أصدر تعليمات في ذلك بغية الكيد له والتسبب في سجنه ثانية حتى يكف عن تنظيم الاجتماعات العامة والخطب واللقاءات بالأهالي فأضرب العمال فعلا عن العمل فدعتهم سلطات الاحتلال للاستجواب فصرحوا بأن عمر بن عطية هو الذي حرّضهم على ذلك إلا أن هذه المكيدة ما كانت لتحول دونه ومواصلة ما أقره وشرع فيه من تحريض على مواجهة المستعمر وتأييب للأهالي على المحتلّ وعملائه.

وما أن اندلعت شرارة الثورة سنة 1952 حتى قاد عمر بن عطية مظاهرة كبرى بسليانة تجتمع خلالها المتظاهرون خارج المدينة ثم انطلقوا من وادي مصوج ومروا بالنهج الذي يحمل الآن اسم عمر بن عطية ثم وصلوا إلى منزل «القائد» (مركز الشرطة حاليا) هاتفين بشعارات تدين سياسة الاستعمار وتدعو إلى تحرير البلاد وتنادي بالاستقلال والكرامة وأدخلوا رسالة وجهها الثوار إلى «القائد» أمام أنظار رجال الجندرية الذين أذهلتهم المظاهرة وفاجأهم عدد المشاركين فيها فألقوا القبض على عمر بن عطية وأودعوه السجن واثّر خروجه منه زاره الزعيم المنجي سليم بمنزله في منطقة «ظهير الذيب» قرب مدينة سليانة.

ونظرا لنشاطه المكثف في صلب الحركة الوطنية فقد كاد له الكثيرون من المناوئين إذ أمعن «القائد» في تكيله بالضغوطات المضايقات إلا أنه لم يستسلم ولم يتأخر. كما تعرض لمحاولة اغتيال من طرف جماعة مجهولة لما كان عائدا من سليانة إلى «ظهير الذيب» على متن سيارته صحبة ابنه محمد الناصر عطية حيث أطلقوا النار على السيارة في منطقة قرب «سانية بين ابن زينة» و «سانية أولاد العبيدي» لكن ابنه الذي كان وراء المقود ضاعف من سرعة السيارة فأخطأهما الرصاص.

ومن المآثر المعروفة عنه كذلك أنه بعث مرة في مهمة إلى جهة غار الدماء والحدود التونسية الجزائرية وكانت معه أوراق ووثائق مهمة ولما أيقن أن الجندرية سيلقون عليه القبض ابتلع هذه الأوراق حتى لا تقع في أيديهم.

□ باع أرزاقه لتمويل الحركة الوطنية

ولما اتضح أن حياة عمر بن عطية أصبحت مهددة أكثر من ذي قبل وازدادت مراقبة الجندرية لمنزله أصبح اثنان من الثوار المسلحين ملازمين له يحرسانه في تنقلاته ويحرسان بيته عند العودة إلى سليانة وحتى زواره كانوا يأتونه خفية متسترين خشية أن ينتبه إليهم أحد العيون والجواسيس.

وخلال معركة نوفمبر 1954 بجبل برقو كان الثوار ينزلون إليه من الجبل لاستشارته وأخذ رأيه فكان يمدّهم بالمال والمؤن ويزودهم بنصائحه وتعليمات. كما كان الثوار يأتون يوم الخميس موعد السوق الأسبوعية لمدينة سليانة ويزودون بكل ما يحتاجونه من نكان تاجر يدعى «محمد علي بوخريص» يقيم الآن بالعاصمة وكان عمر بن عطية يتكفل بتسديد أثمان مشترياتهم.

ولم يكتف عمر بن عطية بالنشاط داخل حدود جهة سليانة بل بادر بربط علاقات مع المقاومين والثوار بجهة القيروان وخاصة منطقة سيدي عمر بوحجلة كما كانت له اتصالات بالباهي الأدغم والطيب المهيري والمنجي سليم الذين نوهوا بنضالاته في مناسبات عديدة.

وإلى جانب تضحياته الجسيمة لم يتوان عمر بن عطية عن بيع جميع أرزاقه من أراض شاسعة بجهة سليانة وحيوان وأموال لتمويل الحركة الوطنية ومدّ الثوار بكل ما يحتاجونه من مؤن ومصاريف فكان أن تخلّى عن ثروة طائلة في خدمة الوطن والذود عن حياضه.

وقد كان عميد المناضلين بالجهة أول رئيس للجامعة الحزبية بسليانة وحتى بعد تركه رئاسة الجامعة وأصل ممارسة نشاطه الحزبي وكان بمثابة المستشار والموجه لزملائه الذين أخذوا المسؤولية بعده.

□ وفاته بالبقاع المقدسة

تقديرًا للخدمات الجليلة التي أسداها عمر بن عطية للوطن واعترافًا بجميله على الحركة الوطنية أرسل في الوفد الرسمي للحجيج التونسيين الذي قاده المرحوم المنجي سليم سنة 1968 إلى البقاع المقدسة.

وقد وافاه الأجل المحتوم هناك في الخامس عشر من ذي الحجة 1387 للهجرة الموافق للربيع عشرة من مارس 1968 ميلادية. وقد استشار رئيس الحكومة وقتها الباهي الأدغم عائلته بسلامة عما إذا كانت ترغب في دفنه بالبقاع المقدسة أم أنها تفضل نقل جثمانه إلى تونس فأثرت دفنه هناك ولم تعد إليهم غير أمتعته وأدبائه.

وتخليدا لما صنع عمر بن عطية من بطولات في سبيل أن يعيش وطنه حراً مستقلاً أطلق إسمه على النهج الذي قاد فيه مظاهرة 1952 وعلى الشعبة الدستورية بسجة.

ويحمل الفقيد الصنف الثالث من وسام الاستقلال وقد ترك أبناء ثلاثة هم على التوالي :

محمد الطاهر عطية : موظف بالشركة القومية للسكك الحديدية التونسية والمكي عطية : موظف بسلك الحرس الوطني بوزارة الداخلية ومحمد الناصر عطية : موظف بالمعهد الثانوي المختلط بسلامة رحم الله الفقيد المناضل عمر بن عطية رحمة واسعة وجزاه خير جزاء لما أتاه من جليل الأعمال لفائدة الوطن وما تجشّمه من عظيم المصاعب خدمة لتونس وتربتها الطيبة الزكية.

وحبذا ونحن نعيش الذكرى العشرين لرحيله عنا أن ننظم تظاهرات باسمه وإحياء لذكراه وتخليدا لنضالاته وأن توجه إلتفانة كريمة لأسرته وذويه خصوصا وقد باع الفقيد كل أرزاقه في سبيل دعم الحركة الوطنية.

* نتوجه بجزيل الشكر إلى السيدين محمد الناصر عطية ابن المناضل عمر بن عطية والحفاوي النريدي رفيق دربه في التضال على المساعدة القيمة التي أسديها لنا والمعلومات الضافية التي أمداها بها لانجاز هذا العمل.

الآخرون ...

(لذكرى عبد الله مالك القاسمي ...)

شَجَرٌ ...

يُغْطُوهُ ألوان الماضي ...

ويشربون يَدَ النَّدَاعِي ...

شَجَرٌ ...

لا وجه للذي إكتمى ...

وجها ... وبعض نجمة ...

لا وجه للذي إحتسى ...

حلما ...

ورذاذات شتات ...

اه ... يا غيمة ...

لو تمطر الآن ...

... لو تسيل جراح الحبيب ... غرة هوس و / قُبْلَةٌ ...

★ ★ ★

إنحناءات الزَّبيع ...

بمن تمضين حلما أصرجته الرِّياح ...

بمن تغسلين ضفيرة الماضي ...

بمن تفتحين جمدي عمامة للجراح ...

قَنَمٌ ... على باب الخريف واقف ...

قَنَمٌ ... ولا زجاج أشعل هذا النَّهار ...

قَنَمٌ ... وهذا المساء ...

* «سبراس» : هي بلدة «السَّرس» وإليها ينتمي الشاعر «عبد الله مالك القاسمي».

قدم ... او ... يا شتاء ...
أي نسج ...
أي بحر ...
... أي ذرکات تمر من هنا ...!!!

★ ★ ★

لو تساءلني غيمة ...
ماذا فعلت الآن ...
لو يفاتحني ... بياضها ...
شتاء ...
ولا شتاء إلا ما مرّ منهوا إلى دائرة القلب ...
فَدم ... وهذا الشتاء ...
فَدم ... ولا مطر أخبأه في جيوبي ...
ولا جراح الحبيب إغتسلت يوما بهذا اللقاء ...
فَدم ... او ... يا غيمة ...
لو تمطر الآن ...
لو تنهمر «سيراين» ...
(أحلى نجمة ...)

محيى الدين الشارني
الكاف - تونس

ميخائيل نعيمة : الأدب والفلسفة والانسان

بقلم : عمار العوني

إن ميخائيل نعيمة من أبرز الأدباء المعاصرين الذين نالوا إهتمام النقاد والمفكرين، ذلك أن نعيمة يعتبر من أبرز رموز وأعلام الادب العربي الحديث الذين أثروا الاطار الابداعي لا سيما المجال النقدي والروائي والقصصي فحازوا بذلك اهتماما قوميا وعالميا واسعا. لقد ولد ميخائيل نعيمة في بلدة «بسكنتا» ببلنات سنة 1889، وتلقى دراسة ابتدائية ثم التحق بالمدرسة الروسية سنة 1899 حيث أتم دراسته فيها بتفوق فكوفى بمزاولة دراسته في دار المعلمين بالناصره بفلسطين سنة 1902. وقد أرسل نعيمة إلى مواصلة دراسته العليا بجامعة بولتافا الروسية سنة 1906، فتشبع بالأدب الروسي وتأثر بالشعراء والأدباء الروسين خصوصا تولستوي وغوركي واستروفسكي. وقد تحول ميخائيل نعيمة صحبة أخيه سنة 1911 إلى أمريكا حيث انكب على تعلم اللغة الانكليزية ثم دخل جامعة واشنطن وتخرج سنة 1916 حاملا شهادة الاداب والحقوق.

<http://Archivebeta.Sakhiit.com>

ومن المعلوم أن ميخائيل نعيمة عندما كان يدرس بالولايات المتحدة في الجامعة كان يلتقي بجبران خليل جبران ونسيب عريضة وعبد المسيح وندرة حداد ورشيد أيوب وإيليا أبو ماضي، وهؤلاء هم الادباء والشعراء العرب الذين أسسوا مع ميخائيل نعيمة «الرابطه القلمية» التي تعنى بتجديد الأدب العربي وتحقيق النهضة الفكرية العربية عموما.

ولقد عُرف ميخائيل نعيمة بنزغته الصوفية وميله إلى العزلة والتأمل ولعل مؤلفاته الشعرية والقصصية والروائية تدعم هذا المنزع التأملي وهذا المنحى الصوفي المرتكز الى رفض المادة وتفاهات الحياة والسعي إلى المعرفة الصوفية والروحية المرتكزة إلى الاشواق والمحبة والزهد. وقد أبدع نعيمة مؤلفات عديدة طيلة مسيرته الفكرية أهمها «سبعون» و «همس الجفون» (ديوان شعري) و «مرداد» و «الغريبال» و «اليوم الأخير» الذي يلخص رؤيته وفلسفته تجاه الانسان والكون والوجود باعتبار أنه قد كتب سنة 1963.

وهكذا فقد كانت فلسفة ميخائيل نعيمة أدبا يدرس الانسان ويتعرض لابرز مسائل ذاته ووجوده كالذات وطريق المعرفة الحق والوعي التام ذلك ميخائيل نعيمة قد قال معرفاً دور الأدب ووظيفته : «هو التعبير عن الانسان وكل حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً صادقاً من شأنه أن يساعد الانسان على تفهم نفسه وتفهم الغاية من وجوده وأن يمهّد له الطريق إلى غايته وإذن فللأدب رسالة سامية»⁽¹⁾. ومن ثمة فمهمة الأدب حسب نعيمة : «ومهمة الأدب كذلك هي أن تحدّثنا عن النفس الانسانية ومعارفها دينا كانت أم فلسفة أم علماً»⁽²⁾. ومن هذا المستوى يكون الأدب رسدا لتجربة الانسان العملية والفكرية والدينية والفنية في الحياة، فالحياة عالم شائك تغلبه المتناقضات والثنائيات وما الحلّ الوحيد إلى معرفتها إلا مغالبة النفس وتطهيرها من الشهوات والأدران والشوائب والمادة وتحقيق الوحدة مع الذات والله والكون كما فعل موسى العسكري في تجربة اليوم الأخيرة : «أنا في النظام، والنظام فيّ فما أكبرني ! ولكن النظام يفهمني ويسيرني»⁽³⁾.

ومن الطبيعي أن نشير إلى أن الأدب عند نعيمة طريق للبحث والوعي والمعرفة فهو سبيل لتجاوز الجهل والضياع وتحقيق امتلاء الذات وتوازن الكيان عموماً. فالانسان في هذه الحياة مطبوع بالشهوات واللذائذ فهو كالحصاة التي تنزل متدرجة من فوق جبل مغطى بالثلوج فما تكاد تبلغ السطح حتى تبدو بما علق بها من الثلج كأنها كرة تزن الأطنان، فتلك الثلوج هي المادّة والتناقضات وما على الانسان إلا أن يسعى لتطهير نفسه وتحقيق خلاصه بالتخلص من تلك التلوث والزوائد والفضلات (يراجع هذا المشهد في رواية «اليوم الأخير» ص : 212 - 213). لذلك تكون التجربة الأدبية عند ميخائيل نعيمة فلسفة تتناول الانسان بحثاً وحياة وتجربة ومعرفة، فالانسان عند نعيمة كائن متميز على بقية الكائنات بالفكر والعقل والقلب فهو مدفوع بطاقاته تلك إلى الخلق والبناء والانشاء والابداع في الحياة وبالتالي إلى تحقيق كيانه ومعرفة الله عن طريق القلب وصفاء الذات والأشواق كما فعل موسى العسكري، بطل اليوم الأخير الذي اتبع سبيل المجاهدة والمحبة ورفض

(1) قولة لميخائيل نعيمة.

(2) شفيع السيد : ميخائيل نعيمة منهجه في النقد واتجاهه في الأدب - عالم الكتب 1972.

(3) «اليوم الأخير» - ميخائيل نعيمة - ص : 63.

الشهوات والماديات طيلة يوم كامل، بعدما شعر بضرورة التعرّي والتخلص من المحدود وتطبيق الدنيا وسجونها وأوهامها وأورامها : «ويستبدّني الشوق إلى الذوبان - إلى التخلص من أورامي وأوهامي، إلى التعرّي من ثيابي، ومن جسدي ومن أفكاري ومخاوفي ومطامحي وشهواتي - إلى الافلات من كل رباط يربطني بالناس ومؤسساتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، إلى الانعتاق من ربكة التغيّر والتبدّل والنموّ والاتحلال والساعات والمسافات ...» (4).

وعلى هذا المقال تركز فلسفة ميخائيل نعيمة على أن الانسان كائن يعيش حياة مليئة بالتفاهات والزوائد والمتناقضات وما على الانسان إلا أن يجاهد ويسعى إلى تجاوز تلك المتناقضات والثنائيات والشهوات عبر معرفة الله والشوق إلى الالتحام بذاته وكونه السرمديّ : «أما أن يكون ذلك النظام عاقلا أو غير عاقل وأن يكون مادة أو روحا فجدل لا طائل تحته ... فالشيء الوحيد الثابت هو ذلك المجهول الذي في استطاعته أن يصغر إلى ما لا نهاية وأن يكبر إلى ما لا نهاية، وليس يغيّر في طبيعته شيء، أن ندعوه مادة أو ندعوه روحا ... ذلك «المجهول» هو الواحد الأحد الذي دعاه الأقدمون «الله»، والانسان هو أتم صورة له في الأرض» (5). وعليه فإذا ما سعى الانسان إلى معرفة الله والالتحام به فإنه سيتقي بذلك درع الفناء وهواجس الموت ويصبح في مأمن من العدم والمخاوف والمحدود، فالموت خلاص وتطهر وذوبان روحيّ كامل بالنسبة للانسان في ذات الله الذي يسعى إلى أن يكتمل على غرار صورته الكاملة. إن الموت في فلسفة ميخائيل نعيمة تجاوز للحدود والمخاوف والتفاهات والالتحام روحي بالنسبة للانسان بالعالم الالهي المطلق، هو تطبيق للمحدود والجهل والضياغ والتفاهات والانصهار في المطلق والابدية المطلقة الجميلة. ولهذا يمكن القول أن قطبي الحياة والموت يمثلان محورا قائما لوجود الانسان ونهايته، بل هما نسيجان لمدار واحد هو الكيان البشري بدءا أو انتهاء، جهلا ومعرفة وضياعا وامتلاء، لذلك فالانسان سجين لهذه الحياة التافهة ولا تكتمل معرفته الا بالموت والانتقال إلى الله والانصهار في العالم المطلق. ولذلك فإذا ما كان ميخائيل نعيمة قد رحل عنا وعن تفاهات هذه الحياة منذ أشهر فإنه لم يمت بل هو مفكر خالد في المطلق.

علم النفس

نشأته - موضوعه - مناهجه

بقلم : محمود اسماعيل

تميز القرن التاسع عشر وبالتحديد عقده الأخيرين بظهور نوع من الضجر من الأنظمة العقلية الكبرى فقد بدأ نجاح العلوم الوضعية يفقد الميتافيزيقا مصداقيتها وبدأت ردة الفعل الماركسية تقتلع جذور مثالية هيكل على الصعيد الاجتماعي والسياسي... وبصورة عامة فإن العلوم وخصوصا نظريات لامارك وداروين طبعت العصر بطابع خاص ونشرت الفكرة القائلة بوجود فرق بدرجة واحدة بين الانسان والحيوان وهو كذلك عصر أوغست كنت وغيره ممن أعلوا من شأن المادة ونادوا بالتخلي عن التأملات العقلية لفائدة التجربة الوضعية...

هذا المناخ أصبح ملائما لقيام العلوم الانسانية التي بدأت تطالب بمكان لها مثل الفيزياء والكيمياء، ومنها علم النفس الذي مر بمراحل عديدة قبل أن يصل إلى تسميته الحالية. فمن علم النفس الفيزيائي إلى السيكولوجيا مروراً بالسيكولوجيا التجريبية وقد ساهم العلماء كل بما اكتشفه ووصل إليه. وقد جسد هربرت سبنسر بفكره أعلى مراتب اهتمامات الطبيعيين فهو يقول بالتطور من السديم (الغبار الكوني) إلى النظم الكونية ومن المادة إلى الحياة ومن الحياة إلى النفس ومن النفس الحيوانية إلى المجتمعات الانسانية وقد عالج الحياة النفسية الانسانية بأسلوب فيزيولوجي فما اعتبر فطرياً عند أفلاطون مثلاً وبنية قبلية عند «كنت» يحصره سبنسر في علاقات مبنية مسبقاً في الجهاز العصبي أنجبتها علاقات حقيقية في العالم المحيط ولدت في مرحلة

المراجع : علم النفس، جميل صليبا، مقالة بعنوان : علم النفس لـ محمد العوني

من مراحل التطور نتيجة تجارب مكثسة وهو بهذا ينتسب دورا حاسما للورثة ويلتقي بداروين في ربط تطور الأجسام بالتطور العام ليرتقي من القوانين الكونية لإعادة توزيع المادة والحركة.

أما هاربارت وفيبير وفيشنير فقد تكاملت أعمالهم حول قياس الاحساس بالنسبة للمنبه وحاولوا ضبط العلاقة بينهما ووجدوا عموما أن المنبه يتغير بإطراد بينما يبقى الاحساس ثابتا حتى يزداد كم المنبه زيادة هامة.

والدور الأهم في إنشاء السيكلوجيا التجريبية يعود إلى «ويلهلم وندت» الذي أضاف إليها الفيزيولوجيا وعلم التشريح وأنشأ مخبر بليزنيغ ارتاده كثير من تلاميذه.

على أن أعماله واكتشافاته أحدثت مشاكل من نوع آخر وهي علاقة الفيزيولوجيا بعلم النفس وعلم الوظائف العضوية إذ يبدأ مجال العالم النفساني مبدئيا عندما يكون الجهاز العصبي برمته تحت تغييرات الوسط ولا غرو فإن مهمة الجهاز العصبي هي بالضبط إيجاد التنسيق والتكامل بين ردود الفعل وبين المثيرات التي تصيب الجهاز العضوي كله. ويفهم بعد هذا كيف يصطدم الفيزيولوجي وهو يدرس الجهاز العصبي بالمشاكل التي تهم أيضا العالم النفساني.

كل هذه الاكتشافات أدت إلى استقلال علم النفس عن العلوم الأخرى وتفرده بقوانين وأحكام فعقدت المؤتمرات المتتالية وكان أشهرها مؤتمر مونيخ (1816) الذي شارك فيه 600 عالم نفساني وامتاز بأمرين تسميته مؤتمر السيكلوجيا بدون إضافة تجريبية وبروز علم نفس تطبيقي إذ استمع المشاركون إلى محاضرات في علم النفس إحداها تحت عنوان «قيس التعب عند الأطفال»: ابنقوس Ebbinghaus ومؤتمر باريس الذي حدد بصفة دقيقة موضوع هذا العالم الجديد.

حاول العلماء من خلال أطروحاتهم ونقاشاتهم تحديد طبيعة هذا العلم
فتفرقوا شيعا ومذاهب ذلك أن الظاهرة النفسية معقدة ومتشعبة فهي بالمفهوم
القديم جوهر ميتافيزيقي.

فهناك من اهتم بالاحساسات الداخلية والخارجية وأهمل العمليات
الفكرية كالعمليات المنطقية والحكم والاستدلال وهناك من اهتم بالتأثر
والخوف والغضب ولم يتوصل إلى دراسة ظواهر أخرى أكثر تعقيدا
كالشعور الديني والجمالي...

الظاهرة النفسية تتخذ أشكالا عديدة فمنها ما يتخذ شكلا علميا عندما
تدرس مظاهرها الخارجية كالانفعال ومنها ما هي ظاهرة شعورية والكشف
عن حقيقتها يتطلب معاناة ومنها ما هي لا شعورية ولفهمها يجب الغوص
في أعماق النفس (الكبت، الاحباط... الخ).

للظاهرة النفسية صفات هي :

أ - حادث نفسي داخلي لا يدركه مباشرة إلا شخص واحد. يقول جميل
صليبا في كتابه «علم النفس» : على عكس الظواهر الطبيعية كامتداد
الحديد بتأثير الحرارة (فيزياء) واختلاط حامض الكبريت بالنحاس
(كيمياء) وظهور أزمة اقتصادية (اجتماع) كل ذلك يشرك في إدراكه
عدة أشخاص لأنه موجود في العالم الخارجي الذي يختلف فيه
الشخص المشاهد عن الشيء المشاهد بينما الظواهر النفسية داخلية
شخصية. والحادثة النفسية الواحدة لا توجد إلا في نفس واحدة.

ب - زمانية لا مكانية : لا محل للعواطف والذكريات أي ليس احجام
وأبعاد وكما قال «لينيتز» : «يوجد في نفس قيصر شيء مطابق لما
في دماغ قيصر».

ج - كيفية لا كمية : أي أنها لا تقاس مباشرة كما تقاس الخطوط أو
المسطوح أو الحركات.

وهكذا إذن اتخذت السيكلوجيا لها موضوعا استقلت به بعد صراع مع الفلسفة والعلوم الأخرى، هذا الصراع الذي أدى إلى استقرارها على اسمها الحالي بعد أن كانت تسمى علم الروح أي علم الظواهر الروحية : Pneumatologie في القرون الوسطى ويمكن تعريفها كالآتي : هي العلم الذي يبحث في الظواهر النفسية وتعنى باستخراج بعض النماذج العامة كما يفعل علماء النبات والحيوان فتصف الظاهرة وتؤلف منها النماذج والأنواع والأنماط الخلقية والطبائع والسجايا مع البحث في منشئتها. ويقول جميل صليبا : «هي العلم الذي يبحث في الظواهر النفسية وقوانينها. البحث فيها كما هي لا كما ينبغي أن تكون وذلك ما يميز علم النفس مثلا عن المنطق والأخلاق وفلسفة الفن حيث تكون الدراسة معيارية وأحكامها أحكام قيم لا أحكام بوجود».

يتبع

• الجزء الموالي : مناهج علم النفس.

ARCHIVE

http://Archivebeta.sakhril.com

آخر ما صدر :

- بحوث في النص الأدبي د. محمد الهادي الطرابلسي
- تطور النظرية النقدية عند محمد مندور فاروق العمراني
- كشف الأسرار عن علم حروف الغبار .. تحقيق د. محمد سويبي

تطلب من : الدار العربية للكتاب

المنار 2، نهج 7101، رقم 4 - الهاتف : 636.600

ص.ب. : 1104 تونس 1000

مجدي بن عيسى

حمام الأغزاز

في مكان منخفض توجد واحة صغيرة نخلاتها بلا ظلال، تحيط بها المرتفعات الجرداء، الواحة باهتة في ضوئها وألوانها مغبرة شعثاء كأنّ الدهر قد نسيها.

ثلاثة رجال باهتوا الملامح والملابس والحراك ورابعهم فوق النخلة متطلع إلى الأفق.



الشيخ : وكأنّي بأعظمي الواحية قد تصلبت. فلا مفاصل ولا حراك. خارت قواي ولا بشير.

الرجل المتقرّص : صبرا يا أبانا فما أظنّ الدهر بباخل علينا بما رأيناه رؤي العين إنما هو الانتظار صير الوقت حجراً.

الرجل المتمدّد : ما بالكم ركود وقد هببتم من قبل إلى واحة الخلاص هبوا، هل فتر عزمكم أم أتى الوقت على حثالة آمالكم.

الرجل المتقرّص : (رافعا صوته إلى الرجل فوق النخلة) أرى النخلة ضاقت بك ولم تأتنا خيول رؤياك بخبر وما عهدناها إلا سباقاً إلى الاتيان بها.

الرجل الراصد : أرى خطي كأنها بنات النخل في اخضرارها يشع منها ضوء ارتدّ عنه بصري منحورا.

الشيخ : لاكني الدهر كما تلوك النعاج العشب ولا خلاص،
حتى نسمع الشباب لما وردت منه غار، فمتى يأتي
الخلاص وأسعد؟

الرجل المتمدد : إيه ياراصد الخلاص هلاً رأيته ساعياً أم ارتدت
نواظرك ولا أثر. فما تبقى مما أقرضني الدهر من
السعد غير الحثالة.

الرجل الراصد : مرآة أرى فيها سوادا ناصعا أرق من الحرير وأعبق
من نسائم الفلق مرآة لا مستقر لمعكوساتها.

الرجل المنقرص : يا راصد الخلاص ما أنتك النخلة يغنيك عن الالتباس
فحقق النظر فما للدهر حكم عليك.
(عواء نئب)

الرجل المتمدد : (عوى الذئب فاستأنست بالذئب
وصوت الانسان فكدت أطيرو)

الشيخ : الخطي خشب، والكلام كأنه رجع الصمت والأبصار
كلت وما عميت والأفئدة اليوم كالأمس مفتوحة
نوافذها مغلقة، فمتى يأتي الخلاص؟ أم ترى الوقت
غادرنا وطردها الزمن فتخشبنا... إذن فلا خلاص.

الراصد : صوت قزحي النبرات أراه ولا أراه، يقترب ووقار
الصمت حاف بالعرش ولا يقترب.

الرجل المتمدد : كلك الزمن ولم تكل. حتى الريح التي تودع ولا تعود،
أسقطت ناموسها معك، الرياح تأتي لواقع وما فيك
لقاح.

الرجل المنقرص : ما تقياً الدهر غيرنا. كأننا الفداء نغسل خطايا الدهر،
ولا خلاص.

الراصد : شاهق كالنخل يمشي، ثوبه الريح وكالموت يده، إني أراه... إني أراه.

(مزيج خافت من الأصوات : موسيقى جنازية، صوت الريح، انكسار الموج، رفيف الأوراق، هطول الأمطار، ظلال تبدأ في الظهور، يتحرك السعف، ضوء قوي نسبياً ينبعث من طرف الركح الأيمن يطغى على الواحة، حركية ضئيلة تنملك الواحة وكأنه النشور).

الشيخ : حلّ ركبه.

الرجل المتفرّص : (وقد هبّ واقفا) إنها الأبدية.

الرجل المتمدّد : (في تحفّز) لقد اجتبينا.

(ترتفع الأصوات المنبعثة من كلّ صوب فيرتفع معها كل ما طرأ على الواحة).

الشيخ : أيها الراصد أنلّ علينا ما تراه، إن امارات الساعة بانّت.

الراصد : أفلنت جياذ الرؤيا كما وفلت العمر من الوليد يوم

http://Archivebeta.Sak.m القارعة

(تشدّد الحركية على الركح : الظلال، الضوء، الأصوات، الأجساد/الناس في هلع/تصل الحركية الذروة، فتسقط النخلات وتمهد الأرض ولا يبقى غير الرجال الأربعة)

الجميع : إنّه الخلاص... إنه الخلاص.

في وجه المحتل ...

محمد نبيل فرادى

كانت السماء ملبدة بغيوم كثيفة دكناء تنبئ بقدوم المطر ... كما كانت رياح الشتاء الباردة والممزوجة بالمطر تلمح قسّات وجهه القاسية عندما وصل الى القرية في ساعة متأخرة من الليل وهو يسير ببطء يجر قنميه من شدة الاعياء ...

كان ظلام الليل الحالك يبعث في نفسه احساسا بالخوف والرهبه فالفراغ القاتل الممتد من حوله والذي يشعر فيه بغربة الاحساس ضيق عليه الخناق ... فتولدت في نفسه صرخات فضل ان يكتمها في صدره الضيق ...

كانت الافكار والتهيئات تعج في ذهنه المشغول متداخلة، مضطربة ... عندما وصل الى طريق موحل تمتد على جانبه الايمن اشجار غابية كثيفة وعلى الجانب الآخر تمتد البحيرة التي يعرفها جيدا ... فهو يتذكر هذا المكان ولكنه لا يرتاح اليه ... عندما تجاوز ذلك الطريق الموحش واقترب من الوصول الى هدفه الذي مازالت تفصله عنه مسافة قريبة ... لم يعد يعأ بالرداذ الذي يبله وتملكه شعور بلذة التحدي وحلاوة الانتصار ... لكن ما يجول في خاطره الآن من هموم كثيرة ومتقلّة ... حولت كل شيء من حوله فريسة للصمت والليل، اذ في بعض الاحيان تنفرد الذاكرة بأحداث وتفاصيل ماضية .. قد تبرر هذا الخوف الكبير من المجهول ومن جب هذا الليل الذي تمتد عتمته على كل مكان فتبدو وكأنها عتمة أبدية تحترق فيها النفوس المحملة باحاسيس الغربة والضياح وتبقىها مكبله باهداب الصبر والمثابرة. اذ لا أثر لعابر سبيل أو لدبيب حياة وكانت نفسه متعلقة بما سيجنيه ثمرة للتعب والانهاك الذي سببه لجسده الهزيل .. توقف لحظة ثم تسلل في جنح الظلام الى مكان قصي ... كان يسرع في مشيته مخافة ان يسمعه احد أو يرقبه من

بعيد ... احس بقلبه يريد ان يثب من صدره لكي يسبق خطواته الثانية في ظلمة الليل ... وما كاد يبتعد بضعة أمتار حتى فاجأه صوت غليظ صادر من خلف سجوف الليل البهيم يأمره بالاسراع أكثر ... تخلص من قلقه واضطرابه واسرع الى مصدر الصوت خلف التلة القريبة ...

تقدم رجل مسلح ونحى عنه الحمل برفق وعناية .. ثم سار أمامه ... فتبعه في صمت وهدوء .. وغاصا في احضان الليل ومسالك الجبال ...

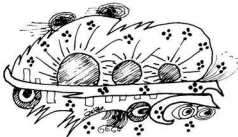
كان الرجل المسلح خبيراً بمسالك القرية وممكناً من جميع نقاطها ... وهو ما جعل اصحابه يطمئنون الى حرساته .. فهو متمرس باحوال القتال .. كما ان الصخور المذبذبة التي تحيط بمكمنهم من كل جانب تجعلهم في مأمن من جميع الواغليين الذين يجهلون هذا المكان أو لا يعرفونه حق المعرفة استطاع الرجلان بعد جهد وعناء كبيرين ان يكملا الطريق في المسالك الوعرة المظلمة الى ان وصلا الى مخبأ المجاهدين حيث كان الجميع في انتظارهما على احر من الجمر .. تقدم الرئيس بقامته الربعة ونزاعيه المقتولتين وفسحة صدره الصلبة .. فحى الضيف القادم اليه .. ثم تسلم حمل الذخيرة من الحارس .. فتفحصه باثنية فائق وذهول وانرسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة .. ثم قال بانفعال شديد : الحمد لله سوف تكمل ما بدأنا ! ... استمر الظلام في الاثناء كان الجميع ينفقون أوامر الزعيم .. الى ان بدأت خيوط الفجر تتسلل ببطء وتطارد جحافل الظلام التي بدأت تتراجع شيئاً فشيئاً لتترك مكانها لنور الشمس ... وفجأة انحدر سرب من جماعات الاحتلال المدربة على القتال والمدججة بالسلاح والعناد .. تقتحم القرية في ضوضاء وجلبة تفرع القلوب وتعد الناس بالويل والثبور ... فهي تقتحم القرية من حين لآخر لتجمع المحاصيل الزراعية وتفتكها بالقوة أو لتحصى عدد الذكور أو تصادر املاكاً وأراضي من اصحابها .. كان الناس يلقون شتى انواع التعذيب والتنكيل فكانت نعمتهم تنتقل بسرعة إلى الجبال ومواقع القتال حيث يزداد عدد النافرين ضد الاحتلال يوماً بعد يوم.

في صباح هذا اليوم الجديد ... اهتزت الارض وجدران البيوت بعنف اثر دوي انفجارات متتالية استهدفت احدى دوريات العدو .. فابادتها عن

آخرها .. وقف الرئيس وبعض من رفاقه برهة .. يتأملون الارض المنبسطة
الجرداء المفروشة بفتات الصخور .. فأعجبهم منظر الدبابات والمصفحات
التي تلاشت قطعاً متناثرة .. كشواهد القبور .. تتخللها جنث الاعداء تسبح في
برك من الدماء الحمراء القانية ... صمت الرئيس طويلاً ثم أطلق زمجرة
مدوية غير مفهومة ... وتراجع بسرعة مع رجاله الى مخابئهم في الجبال ..
حيث خنادق الامان وجنود العواصف ووحشة الليل ... كانت فرحتهم
بالانتصار .. لا تعادلها فرحة ... كما كان مشهد الغاصبون وهم صرعى في
ميادين القتال .. منظراً رائعاً لا ينمى ... يزيد المجاهدين حماساً واعتداداً
بانفسهم وبأسلحتهم التي لا تفارقهم ابداً .. لقد ركبوها صهوة الاخطار لأجل ان
يتغنوا بنشيد الحرية في يوم ما ... فهم يطلبونها ويخطون سطورها بمداد
النور الذي يضيء الكون مع كل فجر ولید .. وبأنامل فولانية تصعق الاعداء
بزمجرة البنادق ولعلة الرصاص .. كان كل شيء حولهم يبحث عن الحرية
وينشدها ومن اجلها يفجر قنابل عشق متوهجة ... نورها سرعان ما يغمر
اللال والروابي ويمكن قلوب المحبين.

القلعة الكبرى - 1988/2/21

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>



رعاية الأطفال المحتاجين :

بين الواقع والمؤمل

بقلم : عبد القادر الهائي

استأثر موضوع الطفولة في المدة الأخيرة باهتمام الرأي العام، والمسؤولين المباشرين لشؤونها، فظهرت المقالات، وانعقدت الندوات وكلها كشفت عديد المشاكل التي يتخبط فيها هذا القطاع الحيوي والحساس في حياة الامم، والتي ينتظر أن ينكب عليها المجلس الأعلى للطفولة فور تكوينه في المدة القريبة القادمة، وهي تتعلق عموما بآيواء الاطفال الفاقدين للمسد العائلي، وتبني الاطفال المشردين، وإعانة المعوزين منهم.

وفي هذا الصدد، نشير إلى أن في تونس - اليوم - أربعة هياكل تستوعب كل هاتيك الاصناف التي ذكرت، وهي قرى أطفال بورقيبة، والمعهد القومي لرعاية الطفولة، وبرنامج الوسط الطبيعي، وقرى الأطفال م.و.س.، مع اختلاف بينها في اسلوب الايواء وشروطه والكيفية المتوخاة في الرعاية.

1 - قرى أطفال بورقيبة

شرع في بعث قرى أطفال بورقيبة منذ فجر الاستقلال (سنة 1956) ويبلغ عددها الآن 17 قرية منتشرة في عدد من الولايات وتكفل حاليا أكثر من ألفي طفل، وهي وإن كانت عند انطلاقتها عبارة عن مراكز للاقامة الجماعية، تجري الحياة فيها على النمط المتعارف عليه في المبيتات بالمؤسسات التعليمية، حيث تخصص قاعات كبرى للنوم وأخرى للتعليم وثالثة لتناول الطعام، فإنها شهدت، بعد ذلك، تطورا مهما في اتجاه التخلي التدريجي عن اسلوب المبيت والاقتراب من نمط العائلة التي تعيش في وحدة سكنية تجمع

عددا محدودا من الافراد، وبما أن السن الأدنى للقبول في هذه القرى هو ست سنوات فقد دعت الضرورة إلى بعث الهيكل الطفولي التالي :

2 - المعهد القومي لرعاية الطفولة :

انشيء هذا الهيكل الطفولي في الستينيات بغرض ايواء الاطفال المهملين الرضع الذين تخلي عنهم أولياؤهم، وهم بالخصوص الأطفال مجهولو النسب حيث يسهر على رعايتهم في انتظار قدوم راغب في التبني، وبما أن عملية التبني هذه لم يحدث أن شملت في مرة من المرات جميع أطفاله وذلك لاسباب دينية معروفة، وأخرى اجتماعية، يشترطها المعهد لضمان نجاح عمليات التبني، فالمشكل أصبح يكمن في ان عددا من هؤلاء الاطفال يستمرون بالمعهد ويكبرون بين حيطانه - ولا أقول بين أحضانه - في وضع أقل ما يقال فيه أنه مفجع حقا، والسبب في ذلك اسلوب الحياة المتبع الذي يقوم على أساس تناوب أربع فرق من المربيات أمر القيام بحاجياتهم المادية اليومية من تنظيف وتغذية وعلاج، وهذا كما ترى اسلوب مادي جامد خال من حنان الامومة ودفع العائلة وهما أساس نمو الاطفال النمو الطبيعي المتوازن السليم.

http://Archivebeta.Sakhril.com

3 - الوسط الطبيعي

هو اسلوب جديد للعناية بالطفولة، استنبطه المشرفون على حظوظها، ويهدف إلى اعانة الاطفال أبناء العائلات المعوزة، حيث تبين أن كثيرا من الاطفال المرشحين للانتحاق بقرى الاطفال بموجب ما هم فيه من خصاصة يمكن معالجة وضعهم هذا بتقديم مساعدات مادية لعائلاتهم وعددهم اليون ألفا طفل.

4 - قرى الاطفال س.و.س.

في تونس قريتان اثنتان من هذا القبيل، احدهما بضاحية قمرت والثانية بسليانة، وتكفلان حاليا 130 طفلا تتراوح أعمارهم بين بضعة أشهر وثلاث

عشرة سنة، وتجري الحياة فيهما على نمط يكاد لا يختلف عن حياة الاسر الطبيعية، حيث يجمع المسكن الواحد من مساكنها بين 7 و 8 أطفال متفاوتين من حيث السن في رعاية امرأة (أم) متفرغة للقيام بجميع شؤونهم في الليل والنهار، شأنها معهم شأن كل أم مع أطفالها الحقيقيين.

تلك هي المؤسسات والهيكل الرسمية المعتمدة في العناية بالطفولة في تونس : أقمها قرى أطفال بورقيبة (32 سنة) وأحدثها قرى الاطفال س.و.س. (5 سنوات) وهي مدة كافية لتقويم النتائج واستخلاص العبرة، من أجل توظيفها في معالجة النقائص والعلل الظاهرة منها والخفية.

● في هذا الصدد ابادر إلى القول بأن أول خطوة في باب اصلاح الاضواء المتردية تتمثل في تحويل المعهد القومي لرعاية الطفولة بقصر السعيد إلى قرية للأطفال على نمط قرى س.و.س. وإن كل تمهل في هذا الأمر من شأنه أن يزيد المشكل القائم تأزما وتعقيدا، والنتائج فداحة، وهل يعقل أن نظل مكتوفي الايدي أمام وضع مأساوي تعيشه مجموعة من أطفالنا، هم يكتون بناره فوجا بعد فوج، ونتجرع مرارته مستسلمين مهزومين ؟!

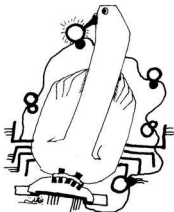
وليس هذا من المبالغة في شيء، فكل من شاهد النشرة المصورة للاخبار مساء اليوم الذي زار فيه سيادة الرئيس زين العابدين بن علي هذا المعهد في المدة الاخيرة قد انتبه دون شك لحالة نزلائه من الاطفال، وأدرك المغزى من عبارات التشجيع التي توجه بها سيادته للمربين والعاملات به، ان اسلوب الكفالة الذي يعتمد تناوب المربين والمربيات القيام على شؤون الاطفال حرهم الحنان العائلي والدفء العاطفي وبالتالي حرهم من النمو الطبيعي المتوازن وعرضهم بالضرورة لعدد الاعاقات البدنية والمزاجية والذهنية ومنها على وجه التاكيد التفاوت المجحف بين العمر الزمني والعمر العقلي.

ومع الاقرار بأن الحل الذي أشرت إليه قبل حين هو حل ظرفي استعجالي، أكّد ان الحل الجذري الدائم انما هو الحل التربوي التوعوي تتحمل فيه المؤسسات التعليمية والتكوينية والاجتماعية عبء القضاء على ظاهرة الانجاب في غياب رابطة الزوجية.

● معالجة مشكل التبني بواقعية تفرض التركيز على بلورة أوجه من الكفالة يقرها الدين، وتستجيب لرغبة الكافلين الذين نقدر أن عددهم سيرتفع والحالة هذه.

● والأهم في هذا المجال هو الانكباب على معالجة معضلة الهوية بالنسبة لهذا الصنف من الاطفال، ورجال الشرع والقانون - ان صح منهم العزم - قادرون على استنباط الحل العادل بخصوص مشكل اللقب العائلي واستخراج بطاقة التعريف القومية وأوراق أخرى ضرورية بدونها يظلون عبئا ثقيلا على المجتمع، وهاجسا مدمرا لكيانهم في المقام الأول.

● وأخيرا، لا بدّ من بذل مجهود أكبر - ماليا وهيكليا، من اجل توسيع مجال تدخل الوسط الطبيعي واحكام نشاطه لما في ذلك كله من الجدوى والفاعلية حيث ينتفي الضغط ويخف العبء المسلط - حاليا - على قرى أطفال بورقبيّة وقرىتي س.و.س.، التي تقبل الى يوم الناس هذا، عددا من الأطفال المعوزين لو شملهم تدخل برنامج الوسط الطبيعي، لكانوا أحسن حالا؛ إذ لا يخفي على أحد، أن بقاء الطفل في حضن عائلته، وخاصة بين يدي أمه هو أفضل ألف مرة من انتقاله إلى وسط عائلي جديد، ولو كان أكثر رفاة، وأقدر على تلبية حاجاته المادية.



وفاء قلب

وفاء فيك يا قلبي وصبر منك تحديدا
 جرى بالدمع من عيني وزاد الصدر تنكيدا
 ألا يا أيها القلب كفى دمعاً وتنهدا
 ولا تبك على قاس نوى هجرا وتبديدا
 ولا تعباً ياطرّق فلن يكفرك تسهيدا
 ولا تصنع من الصمت مع الأحزان تهديدا
 فمن قد كنت تهواها نمت منك المواعيدا
 نمت أيا منا كانت لياليها لها عيدا
 وكنت الودّ تسقيها فما لاقيت تأييدا
 فحاول أن تجاريها بما تبغيه تجديدا
 لكم نشقى بذا الحب لكي نبقي أبديدا
 فقم وأحفل بهذا الكو ن وامنحه الأناشيدا
 ستجني كلّ ما يغني عن الآلام تأكيدا
 غدا شمّك تنميّنا زمانا كان تغريدا

محسن الفرجي

هشيم

صافيناز قرعه - صفاقس

يشهق الحبّ

على ربوة الاحتضار

وأنا هنا

أجنّر آلامي

بلا قلب ...

جسد أنا .. مفتت

تهشمه صدى الأغنيات الحزينة

يشنقه اليأس

يعلن إطفاء كلّ الشموع

يا زمنا ،

يشنعل بالرّياء

يتوجّني على عرشه

ملكة من نحاس .. وردة ذابله !

وهشيم !

يا زمنا !

ملكًا كُنْتُ عَلَى جُرْحي

هذي أنا أحزم أمتعتني

أشتاق للرحيل

فلا وقت للبقاء

شراصة الاعصار

شعر : السعيد المنصوري - سليمان

شراصة الاعصار	من بدويتي الصادقة
بأجنة قد أشعلتها	الحبلى بأناشيد الصراحة
حضارة الفجار	أتيك يا حبيبتى
فما التأنيث للشمس مذلة	محملاً بقراري
وما التذكير مفخرة للهلال	فاختاري ...
وما استأسد شبل هكذا !	اختاري :
بمفرده ...	ما بين الالتزام بقوانيني
ما لم ترعه ...	أو التمرد عن غريب أفكاري
أم الضواري	اختاري
يا فتنني !	ما بين غربتي وشذوذي
كفتني الغربة موطننا	أو العزوف عن ركوب أنهارى
والحزن يشنقني	فاختاري
والأسى ...	يا زهرة قد أغرقتها
فهل من بريق في وضوح النهار .	

قصيدتان

شعر : الحبيب دريال

1 - المسافر :

لَنْ أَكُونَ كَمَا كُنْتُ
قَالَ الْمُسَافِرُ
وَلَنْ يَنْبَرَأَ مِنْ قَسَوَتِي الْيَاسِمِينُ
فَذِي سُبُلِي تَبَحُّثُ عَنْ شَذَاهُ
تَنْقَضِي الْمَدَى فِي مَدَاهُ
وَتَحْتَظِيئُ النُّجْمَةُ الْأَقْلَهُ،
نَجْمَتِي يَا خَرَابَ السَّنِينِ
نَجْمَتِي طِفْلةٌ هَائِمَةٌ
تَتَوَضَّأُ صَبْحًا مَسَاءً
وَحَالِمَةٌ كَالْمَجَانِينِ مِثْلِي
تَفْتَرِضُ الْوَهْجَ فِي كُلِّ نَاجِيَةٍ مُهْمَلَةٍ

2 - القائلة :

هَلْ صَحَا جَدُولِي وَاسْتَفَاقَتْ رُبَاهُ ؟
وَهَلْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمِيرَ أَنَا ؟
وَالنَّوَافِدُ أَنْتِ ؟
فَكَيْفَ نَمَا الْجَدْبُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؟
وَأَصْطَفَقَ الْحَجَرُ الْوُثْنِي ؟
وَأَصْبَحْتَ فِي لَحْظَةٍ قَاتِلَةً

ثنائيات

ثنائية ثانية :

... سنة

كانت فيها السماء

وحيدة

ولا أرض للشمس

لتزرع فيها سنا بلها

.. وسنة

كنْتُ فيها

تنبش قبرك

لتحيا

ولا شيء لك

لتحيا

.. غير وجه

سجد لغيرك

وامرأة أبت الجلوس

على رفاتك

.. وسنة

كنْتُ فيها

أراقب فيك السماء

ولا اسم لي

لا أرض لي

لا قبر لي

غير وجه الله

الذي فارقت

شعر : عبد الحميد ضريوة

القلعة الكبرى

ثنائية أولى :

وكنْتُ طفلة

تلبسين الصباح

ترتدين طهر الله

... وكنْتُ كغراب

ينشق عند المساء

... استل مني

طفلاً

غفر وجهه

بطقوس ليلية

....

أيا طفلة

افتحي القبر لي

ورشيني بأعقاب رفااتي

فأنا كدموع من بصفتة أمه

بعد الولادة

... أو

كسماء سودتها غيوم

غضب الله عليها

وحرمها الولادة

قصيدة الفتى

أوقد بردك يا فتى
فلا حلم لك الآن لتنام
.. لا
ولا امرأة تبدد عنك وحشة الاشياء
ولا نجمة
تضي في مهب المَاء
ولا يداً
ترتب فوضى الرداء
اذ تعانق يداك يديك
.. يا فتى
خانك الوقت والأصدقاء
خانك الخطو
وشردتك نساءً
فاحتد صمناك
وخر من وجهك .. ماءً

منطفئنا الضوء
يداه
وعيناه واحقان من نارٍ
ومن حجر
... صوته خيمة للمساء
ودمه مقبرة للوقت
وللقلق
.. على شبابه اليتيم
يمر ريح قليل
ولا وجه يضيء
لا أمل

يصحو من وقته الردىء
ولا طير
يحط على فرح قديم
هذا الفتى
وردة الطريق
ضوء في مهب الريح
.. ليل
ولا اشتعال اليدين
.. لا خرافة
تسيح حلمه بصفتين
ولا شفة
تستهيه لظلامها المرّ
لحظتين <http://Archivebeta.Sakhril.com>

أوقد بردك يا فتى
ونم على كفى قليلاً
أو نم في دمي
ولعلم خطوك الهارب منك
وهذا وجهك يفرّ عنك
.. مرتبك هذا الوجه
ولا أغنية لتنام
لا وردة في هبوب السؤال
ولا فاتحة للكلام
فأوقد فراغك
وتهاياً
لبداء الختام

السيد بوفريد

قررت أن أحيا

الهادي العبدلي

لأنني جسور
لأنني جريت ضمات القبور
وعسير الحساب يوم النشور
كتمت صوتي ..
نسيت عشقي وأدركت موتي
قررت أن أحيا ..

ما بين النقاط وبين الحروف
قررت أن أحيا ..
ليسألني الأبرياء

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

عنه وعن كل النساء

عن ضحايا الحب

كيف ماتوا

وكيف يحيون

كيف هم قتلوا ما بين الأهداب وبين الجفون

قررت أن أحيا ..

فلا عليك

ليس لك ولا لسواد عينيك

ولا للبسمة في شفتيك

ولكن ..

لأقول كلاماً لن تصدّقيه

وأعيش زماناً أنت ترفضيه



إِلَى الشَّهِيد ..

يَا مَنْ صَبَغْتَ بِالْأَحْمَرِ كُلَّ الْوَهْدِ وَالْأَنْجَادِ

يَا مَنْ رَفَضْتَ الْعَيْشَ تَحْتَ سَيَاطِ الْجَلَادِ

وَصَبَحْتَ غَالِيًا رُوحِي فِدَاءَ أَرْضِ الْأَجْدَادِ

وَكَانَ قَوْلُكَ قَوْلَ رِشَادِ

فَرَوَعْتَ الْعَدُوَّ لَمْ يَهْزَمْكَ بِجَيْشِهِ وَالْعَنَادِ

وَحَمَيْتَ الدِّينَ وَمَحَوْتَ بِتِهْمِكَ صَلِيبَ الْأَوْغَادِ

وَصَرَخْتَ غَالِيًا : خِي عَلَى الْجِهَادِ ..

رُوحَكَ بَاقِيَةً مَعَنَا فَمَا الْفَنَاءُ سِوَى فَنَاءِ الْأَجْسَادِ

أَيُّهَا الْكَرِيمُ يَا رَمَزَ الْإِسْتِشْهَادِ

يَا مَنْ كُنْتَ لِفَرَسِنَا بِالْمِرْصَادِ

هَذِهِ تُونِسُ أَمْسَتْ جَوْهَرَةً نُورَهَا وَقَادِ

بَاقِيَةً كَرُوحِي وَرُوحَكَ إِلَى الْأَبَدِ ..

لَا مَكَانَ فِيهَا لِبَطَاعِيَةٍ ..

لَا مَكَانَ فِيهَا لِظَالِمٍ ..

لَا مَكَانَ فِيهَا لِمُسْتَبَدٍّ ..

إيمان عبد الملك

عذاب رغم الأمل

تضج بي الأفكار
أغرق في عمق المتاهات
تذبل في روضي الأزهار
فأصرخ لرفيقي البعيد
لا تخش ...

سنهزم وحش المأساة
نبني قصور الحب / الأمل
نحيل القفر إلى واحات
لن تهدم عاصفة ما بنينا
لن يقفر روض بقلبتنا

لطفي بن صالح - سليانة



● وافانا الصديق الجديد أنور البصلي (من القيروان) بلوحتين شعريتين بعنوان «جنوبيتان». نرحب بأنور ونحن على يقين من أنه سيواصل مراسلتنا ومدنا بكتاباته الشعرية التي لا شك أنها ستكون في مستوى طيب.

● وصلتنا محاولتان في الشعر من الأنسة نبيهة اليحيوي الأولى بعنوان «أنا عربية» والثانية «أحلى الكلام»، وفي هذه نقول :
«كتبت بأحلى الكلام
كتبت بحبي، بقلبي».

وفي انتظار وصول محاولاتها الأخرى نقول لها أهلا.